دائرة الأوهام

رواية

أسماء محسن

الفصل الأول	القرار الخاطيء
الفصل الثاني	الآنتقام
الفصل الثالث	البداية
الفصل الرابع	عناكب وديدان ونصاب
الفصل الخامس	أمل أخر
الفصل السادس	سد الثغرات
الفصل السابع	المرض العقلي
الفصل الثامن	صفحة جديدة

الفصل الأول

(القرار الخاطيء)

أرتفع صوت جرس الباب، فأغلق (مروان) عينيه في ضيق وغمغم: ما الذي يريده ذلك البواب الأحمق الآن؟

كان قد انتهى للتو من حلاقة ذقنه، ووقف يصفف شعره الناعم ويتأمل ملامحه الوسيمة في المرآة حينما قاطعه رنين الجرس المزعج، فغادر الحمام متوجهًا إلى باب الشقة، وفتح الباب بشيء من الحدة، وهو يقول: هل تعلم كم الساعة الآن؟!!

ثم وقف صامتًا حينما وجد أنّ من طرق جرس الباب ويقف أمام الشقة ليس حارس العقار الصعيدي، بل هي فتاة جميلة الملامح بطنها منتفخ قليلًا مما يوحي أنها حبلى في الشهر الرابع أو الخامس، كانت متوترة ومترددة، ويبدو أنها احتاجت إلى استجماع الكثير من الشجاعة والجرأة كي تأتي إليه وتقف الآن في هذا الوقت المتأخر.

ظل صامتًا وإن ألقى نظرة سريعة على بطنها، قالت بصوتٍ مبحوح: أنا...

ثم تنحنحت، وأكملت بصوتٍ أكثر وضوحاً: أريد التحدث معك قليلًا.

أشار إليها كي تدخل، وأغلق الباب، ثم تبعها إلى حيث جلست على المقعد الوثير في الصالة، وكانت شقته الواسعة مؤسسة بشكلٍ يوحي بالثراء والبذخ.

قال (مروان) وهو يجلس ويضع ساقًا على ساق أمامها: ما الذي ستقولين هذه المرة يا (هيام)؟

ردت بتوتر: انا سأمنحك فرصة أخيرة فقط؛ لأنني مازلت أحبك، عليك أن تتزوجني بعقدٍ رسمي خلال 3 أيام وإلا.....

نظر إليها ساخرًا ولم يجب، فأكملت بعصبية: سأرفع عليك قضية، هل تفهم؟!

أشار إليها بيده بمعنى (اخفضي صوتك) وقال:وماذا أيضًا؟

ردت بغضب: هناك تحليل ال "دي إن أيه"، سيثبت أن الجنين في رحمي هو ابنك، ستعترف به رغم أنفك وستتزوجني.

ظل يتأملها صامتًا دون أن تتغير ملامحه، فعادت تقول: درءًا للفضائح يمكننا أن ننهي الأمر بزواجٍ رسمي.

تنهد ثم قال: أنا لا أخشى الفضائح، أرفعي ما شئتِ من القضايا.

-ماذا؟!

-عزيزتي (هيام)، لنفترض أنك رفعتِ قضية إثبات نسب، ثم ماذا؟! سيجيش والدي المحامين لإطالة القضية والبحث عن أي ثغرات ممكنة في القانون، ولنفترض أنك ستكسبين القضية، ستثبتين أن الطفل ابني، وبعد؟!! سأدفع له نفقة شهرية، بعد فترة قصيرة سينسى الناس أمري، صدقيني، سأتزوج من أريد، ولن يرفض أحدٌ تزويجي ابنته، وأعيش حياتي بشكلٍ طبيعي، أما أنتِ، فستوصمين بالعار إلى الأبد، وكذلك شقيقتك، والطفل سيظل إلى الأبد موصومًا بالعار كذلك، أما إن كانت بنتًا فلن يتزوجها أحد، وإن تزوجها فسيعايرها إلى الأبد بأنها ابنة سفاح، تنسين دائمًا طبيعة مجتمعنا.

حدقت فيه (هيام) وقد اتسعت عيناها قليلًا، كان يتحدث بلهجة هادئة عقلانية لا مبالية، غمغمت: كنا متزوجين.

رد بلهجة أبٍ ينصح صغيره:غير صحيح.

-ب.. بل، تزوجنا عرفيًا.

-ولكن ليس معك إثبات بعد أن سرقت منك الورقة وأحرقتها، وسأنكر طبعًا أنني تزوجتك، ثم هل يعد الزواج العرفي زواجًا حقا؟!

هتفت وقد بدأت الدموع تتجمع في عينيها: أنت قلت أنك تحبني يا (مروان).

أعتدل في جلسته، وقال: وأنا لم أكذب، لقد أحببتك حقًا، ثم لم أعد أحبك.

مضت ثوانٍ من الصمت، ثم نهضت (هيام) بتثاقل، وقالت متحدية: لنر رأي والديك وأخيك في هذا الأمر.

أفلتت منه ضحكة قصيرة، ثم تماسك سريعًا، وقال: والدي سيقتلك، أجل.. أنا لا أمزح، والدتي ستعتبرك ساقطة، أخي لن يفيدك كثيرًا.

وألقى نظرة سريعة على بطنها، ثم قال: لقد أخبرتك أن تنتظمي في تناول الأقراص، ولكنك لم تنصاعِ، بعدها عرضت عليك إجهاض الجنين والتكفل بجميع المصاريف، ومن جديد رفضتِ، لقد خطتي للحمل محاولة إجباري على الزواج منك

رسميًا، والآن.. عليكِ أن تدفعي ثمن قرارك.

غمغمت مذهولة: عما تتحدث؟ أنا أحببتك ومازلت، ولهذا أردت ان أحتفظ بأبنك.. لقد نسيت تناول قرص منع الحمل في ذلك اليوم، لم أتعمد أو أخطط لذلك.

-ولماذا رفضتِ الإجهاض إذًا؟!! لمَ تصرين على الاحتفاظ بطفلٍ لا أريده؟ آه، هل هو الطمع في ثروتي وثروة والدي؟!!

-.....

نهض وتطلع إلى الساعة الأنيقة المعلقة على الحائط، ثم قال: لدي موعدٌ هام الآن، لذا....

نظرت إليه في مزيج من الغضب والتوسل، مضت نصف دقيقة، ثم استدارت مغادرة المنزل.

بعد مغادرتها زفر في ضيق، لقد عطلته والساعة الآن العاشرة مساءً، أسرع إلى حجرته فارتدى البدلة الأنيقة، وتأمل وجهه الوسيم من جديد، ثم تناول سلسلة المفاتيح، وغادر الشقة متوجهًا إلى المصعد، ولما هبط توجه إلى مرآب

السيارات التابع للمبنى، والتقى البواب قادمًا ومعه لفة طعام، قال بصرامة: (رضا)، عليك أن تنتبه أكثر من ذلك لحراسة العمارة، لقد صعدت إلي منذ قليل فتاة مزعجة، هل تفهم؟!

ردّ الحارس: أجل يا بك.

ركب سيارته متوجهًا إلى فيلا أسرته، وألقى نظرة على الدمية الكبيرة الموضوعة على المقعد الخلفي للسيارة.

***

برغم أن (هدى) كانت فتاة عادية، متوسطة الطول، متوسطة الوزن، متوسطة الجمال، إلا أنها كانت تمتلك أجمل ابتسامة

رآها (مروان) في حياته، وقد خطر له أن عليه أن يجعلها تضحك وتبتسم دومًا كي تبدو جميلة، ولكن لم خطرت على باله الآن!؟ بالطبع يعرف لمَ خطرت على باله الآن.

***

دلف (مروان) بسيارته عبر الممر المرصوف في حديقة الفيلا، وأوقف سيارته في المرآب الصغير داخلها، وغادر فاستقبله أخوه الأصغر (خالد) بلهجة ملومة: تأخرت كثيرًا، نريد أن نطفيء الشمع.

تناول (مروان) الدمية، وقال باسمًا: آسف جدًا، حدث ظرف مفاجيء جعلني أتأخر.

وصافح أخاه وقبله، وتوجه معه إلى داخل الفيلا؛ حيث رحب به الحضور وهم يلومونه على تأخره، وقالت ابنة أخيه ذات التسعة أعوام: تأخرت يا عمو.

قال باسمًا وهو يناولها الدمية: آسف جدًا يا (إسراء).

أغلقوا الأضواء بعد ان أضاءوا الشموع، وبدأت أغاني عيد الميلاد، ثم قامت ابنة اخيه بإطفاء الشموع، وصفق الجميع وراحوا يقبلونها متمنين لها عامًا سعيدًا. هناك العديد من رجال الأعمال وأصدقاء والده، وزميلات ابنة أخيه وأسرهم قد حضروا. الحفلة أنيقة، والخدم يعملون بنشاط، الحلوى الفاخرة المنوعة قد ملأت الطاولة الفخمة.

وقف (مروان) يتحدث مع والده، فأقتربت منه والدته (ميرفت) هانم.

قبل يدها بأناقة، وقال: واو!! شعرك يبدو رائعًا ماما.

قالت في فخر، وهي تتحسس شعرها المصبوغ باللون الأشقر الثلجي: لقد أعجب والدك كثيرًا.

ثم أكملت بشيء من الصرامة المصطنعة: ألا تنوي الزواج؟

رد باسمًا: بالطبع.

قال والده: كنت أخبره عن ابنة (عصام) بك.

هتفت والدته: أجل، إنها فتاة جميلة وممتازة من كل النواحي، عمرها 29 عامًا.

وعاد والده يقول: بعد أربعة اشهر أنت سوف تكمل 40 عامًا يا (مروان)، لم تعد شابًا صغيرًا، ولا ينقصك شيء، عليك أن تتزوج وأن تمنحني أحفادًا.

رد (مروان) في ضيق: سأفكر.

تحسست والدته وجنته بيدها، وقالت بحنان: أريد أن أفرح بك قبل أن أموت.

هتف (مروان): أطال الله عمرك أمي.

رد والده بصرامة: نحن لم نعد صغارًا، ولا أنت كذلك، أنا في السبعين من عمري، ووالدتك في منتصف الستينات، لن نعيش أكثر مما عشنا بالفعل، إلى متى ستظل هكذا تعبث هنا وهناك مع من هن دون المستوى، حان الوقت كي تستقر وتتزوج،

وتكون أسرتك الخاصة، سأقوم بتحديد موعدٍ لمقابلة أسرة الفتاة، سأتحدث مع (عصام) بك.

-بابا، فقط امنحني...

قاطعه والده: هذا قرارٌ نهائي، لقد منحتك سنوات من العزوبية، إذا رفضت أو هربت الآن؛ فسأتبرأ منك حالًا.

رد (مروان): حسنًا، حسنًا، ولكن لا تغضب، سأفعل ما تريد هذه المرة.

في الحادية عشر مساءً، أنتهت الحفلة تقريبًا، وغادر الجميع ولم يتبقى سوى والديه وأخيه وأسرته.

كان (مروان) هو الابن البكر ل (محمود مروان) صاحب شركة لتصدير واستيراد المواد الغذائية، ورجل أعمال ثري ومهم، وليس له سوى أخٍ واحد أصغر منه بثلاثة أعوام هو (خالد)، والذي تزوج وأنجب صبيًا عمره 11 عامًا، وابنة عمرها اليوم 9 أعوام، ويعيش مع زوجته وأطفاله في فيلا والديه.

كان (مروان) وسيمًا للغاية، وحتمًا يجذب انتباه النساء والفتيات بطريقة حديثه اللبقة الرقيقة وجسده الرياضي وملامحه الجذابة التي توحي بأنه اصغر سنًا بكثير مما هو عليه في الواقع، وكان يدير مع أخيه شركة والده الآن بعد أن كبر والده في السن، وأصبح يتابع العمل بشكلٍ أقل من المعتاد، وكان يعيش في شقته المستقلة منذ أكثر من عشرة أعوام في حيٍ راقٍ من أحياء مصر الجديدة، وكانت لا تبعد كثيرًا عن فيلا والده في نفس المنطقة.

بعد أن ألقى تحية المساء على والديه، غادر (مروان) إلى حيث سيارته وسار أخوه بجواره، وتساءل باهتمام: ماذا حدث؟! تبدوا متغيرًا ومهمومًا.

رد (مروان): على الأطلاق، أنا بخير تمامًا.

وركب السيارة وغادر.

***

عادت (هيام) إلى منزلها تجر قدمها وقد تركت دموعها تسيل، فدلفت إلى الشقة وأغلقتها، وأضاءت الصالة، ولما رفعت عينيها وجدت فتاة أصغر منها سنًا تنظر إليها، فهتفت: (هيفاء)، متى عدت من إسبانيا؟

تطلعت إليها (هيفاء) في قلقٍ، وغمغمت: اليوم. لقد أرسلت لك كثيرًا على الواتس، ماذا أصابك؟ لماذا تبكين؟!!

مسحت (هيام) دموعها بظهر يدها وهي تقول: لا شيء، اشتقت لك كثيرًا، لم أر الرسائل للأسف.

واحتضنت أختها في حرارة.

أجلستها (هيفاء) على المقعد في الصالة وجلست بجانبها، وقالت: احتفظتِ بالجنين برغم تحذيري لك.

وتطلعت إلى بطنها بغضب، وعادت تقول: أخبرتك أنه لن يتزوجك يا حمقاء، أمثال هذا الحقير يعبثون ويتسلون بالبنات فقط.

ارتجفت شفتا (هيام) وهي تقول: ولكنه تزوجني عرفيًا، ووعدني بأنه..

قاطعتها (هيفاء): إنه كاذب، مازلتِ مخدوعة فيه.

انفجرت (هيام) بغتة بالبكاء، وتمتمت من وسط دموعها: معك حق، لقد حاولت تهديده ولكنه لم يهتم.

ربتت (هيفاء) على كتفها في رفق وشفقة، وقالت بحنان: لمَ لا تأتين معي إلى إسبانيا؟ أقارب ماما هناك يتمنون رؤيتك كما تعلمين، وفي إسبانيا المجتمع مختلفٌ تمامًا، الناس لاتبالي كيف حملتِ

هزت رأسها نفيًا، وقالت: لا يمكنني تربية ابني بدون أب يعترف به، بل كيف أواجه اقاربنا، في النهاية نحن عرب ومسلمون، وسيكبر ابني ليدرك وضعه المخزي، كلا، سأنجبه وأنا واثقة من أن (مروان) سيشعر بالحنين إليه، وسيعترف به ويتزوجني في النهاية.

هزت (هيفاء) رأسها بيأس، وقالت: لا جدوى من إقناعك.

ونهضت لتعد العشاء، فهتفت (هيام): انتظري وسترين، سيقتنع في النهاية، عندما يحمل الصغير بين يديه سيعترف به ويحنو عليه، وستتملكه مشاعر الأبوة، إن (مروان) حنون في أعماقه.

-أخبرتك أنك تتجنين على هذا الطفل وتظلمينه.

-ما خطب الجميع؟!! لمَ تطلبون مني قتل ابني؟ ثم كيف أقتل قطعة من (مروان)؟! لا أستطيع.

وانفجرت في البكاء، فجلست (هيفاء) بجوارها واحتضنتها.

وكانت الأختان من أبٍ وأم يعملان في التعليم، فكان الأب مدرس لغة عربية، وكانت الأم مدرسة لغة أنجليزية، يعيش معظم أقاربها في إسبانيا حيث هاجروا منذ سنوات.

توفيت والدتهم منذ أكثر من عشرة أعوام، وتوفي والدهم منذ عامين تاركًا (هيام) ذات الخمسة والعشرين عامًا و(هيفاء) ذات العشرين عام، وكانت الأخيرة أكثر جرأة وخبرة بالناس، وتعشق الترحال والسفر؛ فكانت تزور أقارب والدتها في مصر و إسبانيا بانتظامٍ على عكس (هيام) التي لم تلقاهم في حياتها سوى مرتين أو ثلاثة، وكانت تفضل البقاء مع والدها معظم الوقت، وكانت بطبيعتها خجولة غير اجتماعية.

بعد تخرج (هيام) من معهد السكرتارية، وجدت فرصة العمل في شركة (محمود مروان) التي كان يديرها ويترأسها حاليًا ابنه الأكبر (مروان)، والذي قبل بتوظيفها وقد بدت في نظراته الإعجاب، كانت (هيام) فتاة على قدر من السذاجة لم تقع في الحب من قبل، ولم تختلط كثيرًا لأنها كانت خجولة ومنطوية؛ ولهذا أحبت (مروان) ووقعت بين يديه بسهولة، بالنسبة لها كان حبًا حقيقيًا قويًا، بل ربما أصبح يمثل لها كل حياتها، وبالنسبة له كانت تسلية ومتعة مؤقتة.

وكانت تؤمن بشدة أنه سيغير رأيه وأنه سيعود إلى حبها.

***

أما (مروان) فقد عاد إلى شقته فألقى المفاتيح على الطاولة الصغيرة في الصالة، ثم دلف إلى حجرته فغير ثيابه وارتدى منامة خفيفة وأشعل مكيف الهواء، استلقى على السرير الوثير يفكر.. خلال سنوات عمره عرف 12 فتاة يذكرهم جيدًا، كان يصنف الفتيات إلى أربعة تصنيفات من وجهة نظره، وضع تحت وجهة نظره ألف خط.

النوع الأول: الفتاة الجادة الطاهرة التي يتحكم فيها عقلها قبل قلبها، هذا النوع لن يظفر منه بشيء دون زواج رسمي شرعي، ومن الخير له ألا يحاول لأن هذا النوع قد لا يقبل به زوجًا حتى...

النوع الثاني: الفتاة الطموحة قد تمنحه شيئًا مقابل شيء، هذا النوع عرف منه فتاتين، وهذا النوع لم يحصل منه سوى على أمور سطحية فقط لاغير، فإن أراد المزيد فعليه بالزواج الرسمي.

النوع الثالث: الفتاة الباحثة عن المال والثراء: وهو النوع المفضل لديه، هذا النوع من الفتيات يمنحك كل شيء مقابل المال والذهب والهدايا، وكانت أغلب الفتيات اللاتي عرفهن من تلك النوعية، الفتاة الجميلة جدًا والتي تعرف كيف تستفيد من جمالها لأقصى درجة، وإن أردت التملص منها فالأمر سهل، هي لن تجبرك على البقاء وستبحث عن غيرك.

النوع الرابع والأخير: هي نوعية (هيام)، الفتاة التي تحركها عواطفها وقلبها، وتقع في الحب بصدق وعمق، ستصدقه إن أخبرها أنه يحبها أيضًا، ستصدقه حينما يخبرها بأنه يريد أن يتزوجها لأنه لا يحتمل تلك المسافة بينهما، ستصدقه حينما يؤكد لها أنه سيتزوجها عرفي بورقة لا قيمة لها مؤقتًا حتى يقنع أسرته، كانت (هيام) هي الوحيدة التي تزوجها عرفيًا وقد فعل هذا على سبيل خوض تجربة جديدة.

كانت (هيام) صيدًا سهلًا حقًا، يتيمة الأبوين وليس لها أقارب سوى أخت صغرى، وأقارب والدتها في إسبانيا جميعًا حاليًا، وقعت في حبه من أول موقف، وصدقت كل كلامه حتى إنه أستغرب من سذاجتها، وشك في أنها فتاة بارعة في التمثيل وتؤدي دور الساذجة. كان كل شيء على مايرام، وقد قضى معها 6 أشهر، ثم راح يفتعل المشاكل معها بحجة الغيرة حتى قدمت استقالتها من شركته، ثم بحجج مختلفة مختلقة حتى طلقها ومزق الورقة، المشكلة أن تلك الحمقاء قد صارت حاملًا، وقد طلب منها أن تجهض الجنين، وكان ينوي التكفل بمصاريف العملية والعلاج ولكنها رفضت، ليكن.. فلتتحمل إذًا.

نهض من على سريره إلى الحمام فغسل أسنانه ووجهه، ثم وضع كريمًا مرطبًا على بشرته بحرص، وتأمل وجهه في المرآة من جديد، حقًا لا يبدو عليه أنه في الأربعين من عمره، ومع ذلك هناك تجعيدة ظهرت في ركن فمه منذ سنوات بسيطة، يبدو أن الوقت قد حان ليتزوج حقًا ويكف عن العبث.

***

في الصباح الباكر، كان (مروان) يدلف إلى الشركة، وخلفه السائق يحمل له حقيبته، كان لديه سيارة الشركة التي تأتي صباحًا لإيصاله، وسيارته الخاصة التي يقودها بنفسه ويذهب بها إلى أي مكان عدا العمل، متأنقًا يرتدي بذلة باهظة ونظارة داكنة وساعة يدٍ سويسرية.

توجه إليه أحد حراس الأمن وقال باحترام: (مروان) بك، هذا الشاب هناك يقول أنه يريد رؤيتك لأمرٍ هام جدًا.

ألقى (مروان) نظرة سريعة على شاب صغير السن، رث الثياب، يقف في حجرة الحراس ينظر إليه، ثم قال للحارس:

اطرده، أنا لا أعرفه، إن كان قد جاء من أجل البحث عن عمل أعطه استمارة ليملأها أولًا، وتخلص بعدها من الاستمارة.

عاد الحارس إلى الحجرة، وراح يتحدث مع الشاب الذي بدا محبطًا، ثم تهللت أساريره وتناول الاستمارة في لهفة.

التقى (مروان) أثناء توجهه إلى مكتبه بصديقه (أشرف) و أخيه (خالد) فحياهما بحرارة، وقال (خالد): أستعد؛ فقد طلب مني والدي أن أبلغك بأنه حدد موعدً لمقابلة عائلة (عصام) بك يوم الخميس بعد القادم.

وقال (أشرف) متظرفًا: أخيرًا سنفرح فيك، أعني بك.

غمغم (مروان): أجل، أظن أن الوقت قد حان للأستقرار أخيرًا. (أشرف) تعال معي لنراجع بعض التقارير قبل الاجتماع،

هل أنت مستعد للاجتماع يا (خالد)؟

ردّ (خالد): أجل، هل ستتناول العشاء معنا اليوم في الفيلا؟

-كلا، ولكن أبلغ ماما أنني سآتي غدًا حتمًا.

-ليكن.

ولما دلف (مروان) مع صديقه ومساعده (أشرف) إلى المكتب قال الأخير: هل حدث شيء ما؟

رد (مروان) بضيق: أجل. (هيام) لم تجهض الجنين.

ارتفع حاجبا (أشرف) وقال: تلك العنيدة، ماذا إن قامت برفع قضية نسب عليك؟ لمَ لا تحاول التحدث معها؟

رد (مروان) وهو يجلس: لن تفعل، لن ترفع قضية فلا تقلق، أما التحدث معها فلا جدوى منه، الواقع هو أنني قد خطرت لي فكرة.

جلس (أشرف) على المقعد أمام المكتب وقال: ماهي تلك الفكرة؟

مط (مروان) شفتيه ثم غمغم: فكرت في منحها مبلغًا من المال كي تبدأ حياتها في أي بلد، ربما إسبانيا حيث أقارب والدتها.

-فكرة جيدة، هل عرضتها عليها؟

-ليس بعد، مهلًا، هناك رسالة وصلتني.

وأخرج هاتفه المحمول وفتحه وتطلع إلى الرسالة، ثم قال متهكمًا: ليتنا تذكرنا مليون جنيه، إنها (هيام)، ترسل رسالة حب.

وهز رأسه، ثم قال: فلنذهب إلى الاجتماع، سأتصل بها وأعرض عليها الفكرة فيما بعد.

***

قالت (هيام) بلهفة: إنه (مروان)، إنه يتصل.

تأملتها (هيفاء) في شفقة، ثم أكملت وضع الأطباق على الطاولة، بينما دلفت (هيام) إلى حجرتها وأغلقت الباب كي تتحدث معه.

بدأت (هيفاء) بوضع الطعام وجلست على الطاولة تنتظر أختها حتى غادرت حجرتها، وقد بدت واجمة، فسألتها: ماذا قال؟

ردت هي تجلس: لم يقل الكثير، قال إنه يريد أن يراني فأجبته أنني لن أقبل بأي شيء يقوله أو أي أتفاق سوى الزواج الرسمي، حاول إقناعي بمقابلته فأصررت على الرفض فأخبرني بأن هذا مستحيل، وأنه سيمنحني مالًا كي أبدأ حياتي من جديد في إسبانيا.

وتجمعت الدموع في عينيها فهتفت (هيفاء): أنه لا يستحق دموعك ولا حزنك، ذلك الوغد يستحق أن يعذب ويموت و...

قاطعتها (هيام): لا تقولي هذا، أنا أحبه وهو كذلك يحبني، سيتذكر حبه لي مع الوقت، علي ان أصبر وأتمسك به حتى يعود إلي.

ساد الصمت على الطاولة، وكلاهما تأكلان بلا شهية، ثم قالت (هيفاء) فجأة: هل لديك ثوبٌ من ثيابه مستعمل أو شعرات أو حتى دماء منه؟

-ماهذا الكلام الغريب؟!! كلا.

-هل معك مفتاح شقته؟

-كلا، لقد أخذه مني.

وتطلعت إليها في حيرة، فقالت (هيفاء) باسمة: لقد تعلمت الكثير من خالة ماما رحمها الله، ومن جدة ماما كذلك كما تعلمين.

قالت (هيام) بضيق: (هيفاء)، حاولي أن تنسي كل ما تعلميته، تعلمين كم غضب بابا كثيرًا عندما عرف بأنهم علموك السحر، ومنعك من زيارتهم نهائيًا من وقتها.

هزت (هيفاء) كتفها بلا مبالاة، وغمغمت: أجل، أذكر، ولكنه شعورٌ رائع أن تمتلكي وسيلة قوية لمعاقبة الأشرار.

-لاتحاولي تجميل الأمور، السحر كفر... كل أنواعه.

-حسنًا، لا تنفعلي بهذا الشكل، كنت أمزح.

***

تأنق (مروان) وبدا وسيمًا كعادته، وتمخض بعطر شانيل الذي اشتراه اليوم وتأمل نفسه في المرآة قليلًا، ثم توجه إلى المرآب حيث سيارته، فركبها وقادها إلى حيث فيلا والده، وكان والداه وأخوه وزوجة أخيه في انتظاره وقد ارتدوا ثيابهم وتأنقو بدورهم، اليوم هو الخميس حيث سيذهبون لمقابلة عائلة (عصام) بك صديق والده، و القاطن قريبًا من هنا، اليوم سيرى الفتاة التي ترغب أسرته في أن يتزوجها، لا يهم أن تعجبه أو لا، لقد حان الوقت كي يستقر ويتزوج حقًا كما أخبره والده.

حمل علبة الشيكولاتة الفاخرة، ودلف إلى فيلا (عصام) بك، جلس الجميع في حجرة الضيوف، وراح (عصام) بك يثرثر عن العمل والمواضيع العامة مع (محمود)، وراحت والدة (مروان) (ميرفت) هانم تثرثر مع زوجة (عصام) وزوجة ابنها، الكثير من المجاملات مع الحديث عن الصداقة بين العائلتين.

كان (مروان) يتحدث بلباقة ولطف شديد كعادته، وهو يحاول إخفاء مللله حتى دلفت العروس أخيرًا وخلفها خادمة صغيرة السن تحمل صينية عليها فناجين القهوة، تناولت العروس الفناجين وراحت تضعها أمام الحضور.

تأملها (مروان)، لا بأس بها، فتاة من أسرة ثرية وذات تعليم عالٍ، وعلى قدر من الجمال، جلست وقد احمر وجهها خجلًا، وبدأت (ميرفت) تتحدث معها قليلًا، بدأ (محمود) يتحدث في موضوع الزواج، وبدأ (مروان) يتكلم كذلك عن كونه سيكون سعيدًا، ويشرفه أن يرتبط بالآنسة (مها) ابنة عمو (عصام) الغالي.. إلخ.. إلخ.

في النهاية، تم الاتفاق على تحديد موعدٍ للقاء آخر بعد عودة (مروان) من رحلته إلى تركيا بسبب العمل.

***

كانت ل (هدى) أجمل ابتسامة رآها (مروان) في حياته، وهو قد رأى الكثير من الأشخاص.

***

زفر (مروان) في ملل وهو يتأمل رسالة الحب على الواتس قبل ان يمحوها.

كان الآن في تركيا لدواعي العمل وقد مضى شهرٌ كامل، وحان وقت العودة لمصر بعد أن وقع الصفقتين. في الواقع كان العمل لا يستغرق أكثر من أسبوع ولكن (مروان) قرر البقاء لشهر على سبيل السياحة، وربما تأجيل اللقاء الثاني بالعروس، كان يرافقه (أشرف) وقد نظر إليه، ثم قال: مزيدًا من الرسائل.

رد (مروان): أنها لا تكل ولا تمل، الفتاة قد جنت.

وإن إعترف لنفسه أن رسائلها رقيقة تمس القلب ونابعة من عاطفة صادقة.

تساءل (أشرف): هل تعلم أنك ستخطب قريبًا؟

قال (مروان): من قال ذلك، ربما تغير (مها) رأيها، لقد اتفقنا على لقاء آخر، وبعده ستقرر موافقتها ونقرأ الفاتحة، ومن ثم نحدد موعدًا للخطبة.

-أنت حقًا لست متحمسًا لهذا الزواج؟

-لست متحمسًا للزواج عمومًا، ولكن الوقت قد حان بالفعل إن لم يكن قد تأخر.

-وماذا لو جنت (هيام) وفعلت شيئًا متهورًا؟

-فلتفعل ما تريد، لن تضرني بشيء، حتى لو خسرت (مها) فبعد عام أو عامين سأقترن بغيرها.

ثم توقف عن السير، وجلس على مقعدٍ رخامي يطل على البحر، وتأمل الطيور قليلًا، فجلس (أشرف) بجواره وقال متساءلًا: لمَ أنت متحير فيما يتعلق ب (هيام) بالذات؟ هل أحببتها؟

رد (مروان): كلا، ولكنها أول فتاة أتزوجها، حتى إن كان الزواج عرفيًا، أيضًا .. الطفل، أحيانًا، فقط أحيانًا قليلة أشفق عليها،أتساءل ماذا سيحدث لو تزوجتها شهرًا أو شهرين ثم طلقتها.

تطلع إليه (أشرف)، في صوته نبرة تردد أقلقته، يبدو أن صديقه يفكر جديًا فيما يقوله الآن، بالنسبة ل (أشرف) كان هذا غير مقبول، هذا يعني غضب (محمود) بك العارم وطرد (مروان) من الشركة وربما طرده هو شخصيًا باعتباره صديقه الذي يعرف أسراره، ثم أنه كذلك شعر بالغيظ من فكرة أن يتزوج (مروان) من (هيام) ولم يدرِ السبب.

هتف (أشرف): ستنتهي حياتك، والدك سيتبرأ منك وستظل للأبد مرتبط بها من خلال الطفل، ثم هل تتزوج من أسلمتك نفسها؟ هل ستثق بها يومًا؟

-إذًا، ماذا لو منحت الطفل لأسرة فقيرة ترعاه مقابل مبلغٍ كل شهرٍ مثلًا.

-ثم يبدؤون بعد فترة في ابتزازك!! هذا احتمال راجح من رأيي.

-بالظبط.. ولهذا ألغِ الفكرة على الفور من عقلي.

بعد يومين، عاد (مروان) إلى مصر مع (أشرف)، وعاد إلى العمل بنشاط في الشركة، وتم اللقاء الثاني في منزل (عصام) وتمت قراءة الفاتحة وتحديد موعد الخطبة الرسمية بعد ثلاثة أشهر؛ وذلك لأنهم حجزوا قاعة فاخرة في فندقٍ شهير ولم يكن بها وقتٌ شاغر قبل ثلاثة أشهر.

ظلت رسائل (هيام) الرقيقة تنهال على (مروان)، قام بإلغائها من قائمة الأصدقاء على الفيسبوك، وألغاها من الواتس، وقام بتغيير رقم هاتفه حتى تتوقف الرسائل، كان متأكدًا من أنها سوف تيأس في النهاية وتقبل بعرضه وتغادر إلى إسبانيا وينتهي هذا الفصل من حياته، ولم يدرِ أنها كانت بدورها مقتنعة بأنه سيعود إليها في النهاية.

مرت الثلاثة أشهر، وبقي على موعد حفلة الخطوبة ثلاثة أيام، وفي يوم عيد ميلاده أرسلت له (هيام) باقة أزهار على عنوان بيته، لقد أتمم اليوم 40 عامًا وسيذهب اليوم إلى فيلا والديه ليحتفل مع أسرته احتفالًا بسيطًا، تناول الزهور الموضوعة أمام باب الشقة وقرأ البطاقة، ثم قال بغيظ: مخبولة.

كتبت له في البطاقة "كل عام وأنت بخير يا حبيبي، اليوم سأنجب طفلتنا بولادة قيصرية في مستشفى (..)، لقد حددت الموعد مع الطبيب اليوم بالذات كي تولد ابنتنا في نفس يوم مولدك."

القى الأزهار من الشرفة في الغرفة الملحقة بالصالة، ومزق البطاقة وألقاها في سلة القمامة، ثم غادر إلى فيلا والديه.

***

بعد يومين، غادرت (هيام) المستشفى تحمل طفلتها الرضيعة، وعادت إلى المنزل مساءً حيث لا يراها أحد، وأعدت لها (هيفاء) الطعام، وظلت بجوارها حتى نامت، وفكرت بأنها ستذهب لمواجهة هذا الوغد، إنها أقوى وأقدر على المواجهة من أختها. في اليوم التالي أعلنت (هيفاء) أنها ستذهب لزيارة صديقة لها، وستشتري الحفاضات للرضيعة أثناء عودتها، قالت لأختها وهي تعينها على النهوض من السرير لتجلس: ساعتين فقط وسأعود، لن أتأخر.

ثم تأملت الرضيعة الغافلة بجوار (هيام)، وأحكمت تغطيتها بالبطانية وقالت: دعيني أتحدث أنا مع ذلك الوغد.

ردت (هيام): ربما سأجعلك تفعلين هذا إن فشلت، لقد قمت بعمل حساب جديد على الفيسبوك وقد قبل طلب صداقتي منذ

شهر وهو لا يدري أنه أنا، والآن هل تعرفين ماذا سأفعل؟

تأملتها (هيفاء) ولم ترد، فقالت: سأرسل له صور الطفلة، سوف يرى كيف ورثت من ملامحه الكثير، سوف ترين كيف سيغير رأيه؟

هزت (هيفاء) رأسها وغمغمت بشيئ ما وهي تغادر، ثم هتفت: أنها تمطر بغزارة، أين المظلة؟

ردت (هيام): ستجدينها فوق المكتب، هل وجدتها؟

-أجل، إلى اللقاء.

وفتحت باب المنزل وغادرت.

تناولت (هيام) حاسوبها المحمول، وعلى الفور أرسلت أجمل صورتين لديها للصغيرة إلى (مروان) مع اعترافٍ بأنها هي صاحبة الحساب الحقيقية، وأنها تريده أن يرى طفلته.

ظلت تحدق في الشاشة في انتظار الرد فقد ظهر أمامها أنه متواجد الآن..

غمغمت: لا تحاول تجاهلي الآن، (مروان)، أنظر إلى طفلتك، عمرها 3 أيام.

فجأة لم يعد ظاهرًا لها، وأدركت انه قام بمحوها من جديد.

دفعها الغيظ والإحباط إلى البحث عن (أشرف) صديقه وكاتم أسراره، فوجدته قد كتب أنه سعيد بمناسبة.....

اتسعت عيناها، هل يمزحان معها حتى تكف عن ملاحقة (مروان)، أم أنه بالفعل الآن في حفلة خطوبته.

بحثت في جوجل عن أخبار عائلة رجل الأعمال (محمود مروان) فوجدت بعض مواقع المجلات قد كتبت خبر خطبة ابنه (مروان محمود مروان) على الآنسة (مها عصام الدسوقي).

دخلت إلى جروب الشركة على الفيسبوك، فوجدت التهنئة موضوعة، إذًا ليس الأمر خدعة ولا مزحة، لقد خطب (مروان) بالفعل.

تمتمت وقد بدأت دموعها تسيل: (مروان)، كيف سأعيش الآن بعد أن تخليت عني إلى الأبد؟ من هي (مها)؟ هل تحبها؟ هل تحبك؟ ولكنها مهما أحبتك فلن تحبك بقدر حبي لك، لن تجد في العالم من يحبك بقدري.

بكت بحرقة وبدأت تصرخ في مرارة وحزن، أزعج صراخها الرضيعة فاستيقظت من نومها وبدأت في البكاء بدورها.

***

قال (محمود) باسمًا وهو يسترخي في مقعده بالسيارة: خطب ابني البكر أخيرًا.

ردت (ميرفت) وهي تريح رأسها على كتفه: أتمنى رؤية أحفادي منه في أسرع وقت.

غمغم (خالد) وهو يتثاءب: الحمد لله أنك جعلت غدًا الأحد أجازة يا أبي بمناسبة الخطبة، فأنا مرهقٌ بشدة بعد أن قضيت اليوم كله معه.

قال (محمود): ومن يقف جانب العريس إن لم يكن أخوه...

وراح مع زوجته يتطلع إلى سيارة (مروان) المزينة بالورود، وبجواره خطيبته والتي تتحرك أمامهم، سيوصلها إلى منزلها ويبقى قليلًا مع أسرة خطيبته، ثم يعود إلى منزله.

وقد أنهى (مروان) مهمته وعاد في الثانية صباحًا إلى شقته، فدلف إليها وألقى بنفسه على المقعد الوثير في الصالة، ومد يده يفك ربطة عنقه، الطقس اليوم بارد فهم الآن في شهر ديسمبر، والأمطار تساقطت عدة مرات، توجه بتثاقل إلى حجرته فألقى نفسه على السرير وتدثر بالأغطية وغرق في نومٍ عميق لم يستيقظ منه إلا في اليوم التالي مع أذان الظهر، فتح عينيه بصعوبة، كانت حفلة فاخرة وجميلة، الموسيقى والأغاني والطعام، كل شيء جميل.

نهض فغير ثيابه إلى منامةٍ ثقيلة شتوية، وغسل وجهه وأعد لنفسه كوبًا من النسكافيه، جلس في الشرفة يحتسي النسكافيه ثم تذكر،لقد أرسلت له (هيام) بالأمس صور الطفلة وقد أربكه هذا إذ كان وقتها يرتدي بذلة الحفلة وبجوراه أخوه يعينه؛ فأسرع يحاول إغلاق هاتفه، وقام بإلغاء صداقته معها، أعاد فتح الهاتف وتأمله صامتًا، لقد قام بمحو الصور فورًا، تساءل جزءٌ منه عن شكل الطفلة، ترى كيف تبدو؟ لمَ أسرع في محو الصور؟ ربما....

تنهد، وقال: هذا أفضل، يجب ايجاد حل لهذا الموضوع بأسرع وقت.

وضع الهاتف على منضدة صغيرة بجواره، لديه الكثير من الأمور عليه فعلها، عليه أن يرسل رسالة حب إلى خطيبته (مها)، عليه ان يلعب دوره جيدًا، كان الطقس لا يزال باردًا وليس مما يشجع أحدًا على الجلوس في الشرفة، ولكنه كان يحب

تلك الجلسة في الصباح كثيرًا، مرت حافلة مدرسية من الشارع، ابتسم (مروان) وهو يتذكر فجأة أنه سأل البواب (رضا) مرة: هل لديك ابناء؟

رد عليه (رضا):أجل يا بك، في البلدة.

-هل تحب الأطفال يا (رضا)؟

-أنهم أحباب الله يا بك.

-هذا صحيح، بالطبع لأن لا أحد من البشر الطبيعية يحبهم.

.....-

ارتفع رنين هاتفه، إنه (أشرف).

وضع (مروان) الكوب الفارغ على المنضدة، وتناول الهاتف وقال: آلو، أنا بخير، استيقظت للتو، ماذا؟ ما هو الذي يفضل أن أعرفه منك؟!!

ونهض من مقعده وهتف:ماذا؟!! هل أنت متأكد؟!! (هيام) انتحرت بالأمس.

اتسعت عينا (مروان) غير مصدق، هل أنهت (هيام) حياتها حقًا؟!!

هتف في غضب: يا لها من مجنونة.

ودلف إلى داخل المنزل، والهاتف مازال على أذنه وهو يستمع بانتباه، ثم هتف: تلك الحمقاء، لمَ لا تفكر بعقلها ابداً؟ هل ماتت حقًا؟ فهمت.

وأنهى المكالمة، وجلس على الأريكة في الصالة، ثم أسرع يفتح الحاسوب ويبحث في جروب الشركة.

عرفت زميلات (هيام) في الشركة الخبر، وطلبواعلى الفيسبوك الدعاء لها بالرحمة والمغفرة، لقد شنقت نفسها بالأمس في الصالة.

استعاد هدوئه بعد قليل، وقال: حسنًا، كان هذا قرارها، ليست غلطتي... ليست غلطتي.

ولكنه في أعماقه لم يقتنع بتلك الإجابة، ثم تلك الغصة في قلبه، لم يرغب حقًا في أن تصل الأمور إلى هذا الحد.

***

الفصل الثاني

(الآنتقام)

عندما انتهى (مروان) من حمامه، كان الحمام قد امتلأ بالبخار، وضع المنشفة حول وسطه، وغادر إلى حجرته حيث ارتدى ثيابه ليذهب إلى العمل.

مضى أسبوعان على وفاة (هيام)، وكان في البداية قلقًا بصدد معرفة إحدى زميلاتها بزواجه العرفي منها، ولكنه أدرك أن لا أحد يعلم عنه، وإن سرت الشائعة في الشركة أنها متزوجة عرفيًا وكانت حاملًا، وأن زوجها المجهول تخلى عنها.

بعدها بدأ يقلق من أن تُقدِم شقيقتها على رفع قضية نسبٍ أو تضايقه أو تحاول ابتزازه أو الانتقام منه بشكلٍ ما، ولكنه لم يتلقى أي اتصال منها خلال الأسبوعين الماضيين.

خطر في باله أن الطفلة غالبًا ستسافر مع خالتها إلى (إسبانيا)، أعجبته تلك الفكرة كثيرًا.

تأمل وجهه في المرآة، وصفف شعره بعناية، ثم تناول إفطاره وغادر إلى الشركة؛ حيث ظل يعمل بهمة، وتناول الغداء مع (أشرف) في مطعمٍ قريب، ثم غادر عائدًا إلى منزله، هناك تناول حقيبة التدريب التي تحتوي على ثياب التمارين وغادر إلى المركز الرياضي شديد الرقي، فتدرب كعادته لساعة كاملة وعاد إلى المنزل حيث أخذ حمامًا آخر، وأبدل ثيابه من جديد ثم أسرع ليلتقي بخطيبته (مها) في منزلها حيث سيقلها إلى العشاء معه في مطعم شهير اعتاد الذهاب إليه بشكلٍ منتظم.

كان المطعم به جزءٌ يطل على نهر النيل، وجزءٌ آخر داخلي ولأن الجو بارد فقد اختار البقاء مع خطيبته في الداخل.

قالت (مها): أنا سعيدة لأنني خرجت معك إليوم.

-وأنا كذلك، أعذريني فالعمل يشغل وقتي.

تفحصت قائمة الطعام بعينيها وكذلك هو، ثم قال: هل أنتهيتِ؟

-أجل.

-فلنطلب العشاء إذًا.

أشار بيده فتوجهت نحوه نادلة، ليست أي نادلة.

كانت طويلة القامة ورشيقة، لها بشرة ناصعة البياض وعيون سوداء وشعر أسود ناعم، وكانت ترتدي زي المطعم، وكانت الجيب قصيرة تبرز ما أسفل الركبتين.

ببراعة كالمعتاد تظاهر (مروان) بأنه لم يلحظها أصلًا وهو يمليها طلبه وطلب خطيبته التي بدت عليها الغيرة قليلًا.

قالت (مها): لمَ ترتدي تلك النادلة ثيابًا قصيرة هكذا؟

رد (مروان): حقًا؟ لم انتبه لذلك.

عادت النادلة وخلفها أحد العمال، وتم رص الطعام بأناقة على الطاولة، وقالت النادلة بتهذيب وبفرنسية سليمة: بالهناء.

قالت (مها) وهي تتناول الطعام : كيف حال العمل؟

-بخير.

-لمَ لا نستغل الفرصة فتخبرني بالأطعمة التي تحبها حتى أتعلمها؟

رد باسمًا: القائمة طويلة.

راحا يتحدثان في أمور عدة، خطر في بال (مروان) أنها فتاة لابأس بها، وربما خلال أشهر قد يقع في حبها، كان أيضًا شاردًا بعض الشيء وهو يحدثها؛ إذ ظل يفكر في أحمر الشفاه الصارخ الذي تضعه تلك النادلة الجميلة.

استأذنت خطيبته في النهوض إلى الحمام لغسل يدها فنهض من على مقعده في تهذيب حتى غادرت ثم عاد يجلس، لقد أنهيا العشاء والحلوى وشربا الشاي، حان وقت ايصالها إلى منزلها والعودة إلى شقته.

رفع يده من جديد فتوجهت النادلة ومعها الحساب وناولته الدفتر، أخرج المال من محفظته وفتح الدفتر كي يضع الحساب

ومعه إكرامية وناولها أياه، ثم نهض ليغسل يديه، وبعدها أوصل خطيبته إلى منزلها وعاد إلى منزله.

***

هتف (أشرف): ألم تحاول التعرف عليها؟

رد (مروان) باسمًا: كانت معي (مها).

جلس (أشرف) أمامه، وقال: إن كانت كما وصفتها فسأذهب اليوم إلى المطعم وأتعرف عليها ما لم تسرع أنت بذلك.

غمغم (مروان): لا أريد مشاكل، أنا قد خطبت وخلال أشهر سوف أتزوج، أريد أن أتغير.

رد (أشرف): وماذا في ذلك؟ أنا متزوج.. بل ولدي طفل، طالما أنك تؤدي دور الزوج أو الخطيب جيدًا فلا مانع من الترفيه عن نفسك.

-وزوجتك حامل!! لا أفهم لماذا تفعل ما تفعل وأنت مستقر ولديك أسرة؟

-لا تذكرني بحملها، زوجتي تصبح عصبية ولا تطاق...

مط (مروان) شفتيه وغمغم: لو علمت (مها)....

-وكيف ستعلم؟ حسنًا، هذه حياتك، إنها فرصتي للتعرف بتلك النادلة، فزوجتي مسافرة إلى أسرتها في الاسكندرية مع الولد، وستقضي هناك أسبوعًا.

لم يرد (مروان)، كان (أشرف) قد لاحظ حالة الفتور التي اجتاحت صديقه منذ أسبوعين بالتحديد.

قال (أشرف) مشجعًا: وا أسفاه، لقد كنت قدوة للرجال من أمثالي.

قال (مروان) ضاحكًا: أنت نموذج لصديق السوء.

-ليكن، سأذهب إلى ذلك المطعم اليوم، طالما تريد أن تتغير.

نهض (مروان) وقال: مهلًا، أنا لم أقل أنني سأتغير الآن حالًا.

ضحك الاثنان معًا وفي موعد الغداء توجها إلى المطعم برغم أنه بعيد عن الشركة وجلسا لتناول الغداء، جال (مروان) ببصره فلم يلمحها ولم ينتبه أنها تقف خلف العامود تتطلع إلى نظراته المتلهفة بسخرية وابتسامة قاسية، ثم توجهت إلى طاولتهم، وقالت بتهذيب: سيدي.

تطلع إليها (مروان) و(أشرف) ثم أخبراها بطلبهما، وغادرت برشاقة كي تحضر الطعام.

قال (مروان): ما رأيك؟

رد (اشرف): إنها صاروخ... صاروخ أرض جو.. ولكن، لا أدري، أشعر بأنها مألوفة.

-حقًا... أنا أيضًا شعرت بذلك، ومع هذا لا أظن أنني رأيتها من قبل.

جاءت النادلة ومن خلفها العامل يحمل الطعام وقامت بتناول الصحون ووضعه بتناسق على الطاولة، ثم قالت بالفرنسية: بالهناء.

أسرع (أشرف) يقول: ما اسمك؟ معذرة.. ولكنك تبدين مألوفة لي وكأنني رأيتك من قبل.

تأملته في حيرة مصطنعة وضيقت عيناها قليلًا وكأنها تتذكره ثم قالت: هل تعملان في شركة (المروان)؟

رد الاثنان معًا: أجل.

قالت باسمة: لقد قدمت طلب عمل لديكم منذ أعوام مع صديقة لي، ولكن تم رفضي.

قال (مروان) مستغربًا: حقًا؟!!

كان يلتقي بأي فتاة جميلة تتقدم للعمل؛ لهذا شعر بالحيرة لأنه لم يلقاها من قبل لسببٍ ما، ما كان ليرفض توظيفها لو أنه رآها.

عادت النادلة تقول: أتذكر أنني رأيتك في الشركة يا سيدي.

كانت تكلم (أشرف) الذي قال وهو ينظر إلى (مروان) في لوم: كيف تم رفضك؟ أعني انك تبدين ذكية ونشطة.

قالت:هذا ما حدث، ولكن تم قبول صديقتي وقد عملت معكم لفترة ثم انتقلت إلى شركة أخرى.

تساءل (مروان) في أهتمام: من هي صديقتك؟

ردت باسمة: أسمها (سارة)، (سارة مختار).

ابتسم (مروان) وهو يتذكر (سارة)، كانت جميلة ومن الصنف الثالث الذي يمنحك كل شيء مقابل المال، وقد اغدق عليها الكثير من المال والذهب قبل أن يتسرب خبر علاقتهما إلى بعض المجلات الصفراء، الآن يتمنى لو أن النادلة من صنف صديقتها.

تطلع مدير القسم في هذه اللحظة إلى النادلة التي اطالت الحديث مع رواد الطاولة، ولولا أنهم زبائن منتظمين ويعرفون

صاحب المطعم شخصيًا لتدخل، ولكنه اكتفى بأن نظر إلى النادلة بصرامة؛ فاستأذنت بالإنصراف.

هتف (أشرف): ماذا ستفعل الآن؟!! أم أحصل أنا عليها؟

قال (مروان): بل هي لي، فلنتناول الغداء الآن.

بعد تناول الغداء، قام (مروان) بدفع الحساب، ثم قال للنادلة فجأة:هل مازلتِ ترغبين في العمل لدينا في الشركة؟

ردت: بالطبع، ولكن هل تعرف صاحب الشركة؟

-أنا ابنه ورئيس الشركة حاليًا، وكنت بحاجة لسكرتيرة وقد التقيتك في الوقت المناسب، إن كنتِ مهتمة بالعمل.

ردت بسرعة: مهتمة جدًا.

قال (مروان): ممتاز، لمَ لا تأتين غدًا، مهلًا.. غدًا أجازة فغدًا الجمعة وبعده السبت أجازة أيضًا، لمَ لا تأتين يوم الأحد إلى الشركة؟

قالت بلهفة واضحة: ألا يمكن أن آتي اليوم؟ أنا لا أطيق العمل هنا وأتمنى العمل لديكم.

رد (مروان): اليوم؟ مع الأسف أنا مشغول اليوم وليس لدي وقت للمقابلات.

قالت النادلة وهي ترفع أحد حاجبيها قليلًا بلهجة ذات معنى: يمكنني أن آتي في المساء بعد أن تنهي عملك.

تأملها (مروان)، لم يتوقع أن تكون الفتاة سهلة هكذا، ربما هي كصديقتها (سارة) التي لم تكن تخفي نواياها.

قال (مروان): أنا أكون متعبًا في المساء وراغبٌ في الراحة، لذا...

قالت بنفس اللهجة: يمكنني أن آتي معك إلى منزلك لنتحدث عن العمل.

اتسعت عينا (أشرف) قليلًا غير مصدق، بينما ظل (مروان) صامتًا، فهتف (اشرف): (مروان)، ألن تجيبها؟ لقد سألتك.

قال (مروان): سأمر عليك هنا في المطعم في العاشرة مساءً، اتفقنا؟.

-اتفقنا.

واستدارت منصرفة وما أن أعطته ظهرها حتى اختفت الابتسامة من وجهها وحلت محلها نظرة باردة وتكشيرة مخيفة.

***

كانت البناية السكنية التي يقطن فيها (مروان) في ذلك الحي الراقي بها عدة أسر، إضافة إلى عيادات طبية ومكاتب محاماة ومكتب للمحاسبة، وكان (مروان) هو الرجل الأعزب الوحيد في البناية؛ لهذا كان (رضا) حارس العمارة والبواب يتشكك في سلوكه، خاصة وأن (مروان) كان يحضر أحيانًا كثيرة النساء إلى شقته في وقتٍ متأخر حتى لا يلحظه الجيران.

واليوم، ها هو (مروان) قد عاد إلى بيته مصطحبًا معه فتاة جميلة رشيقة ناصعة البياض، ترتدي ثيابًا ضيقة وقصيرة.

ألقى (مروان) التحية على البواب الذي ردها ببرود وهو يتأمل (مروان) بطرفٍ خفي في اشمئزاز.

دلف مع الفتاة إلى المصعد، وصعد إلى الطابق الثالث حيث شقته

تساءل (مروان): لم أعرف اسمك حتى الآن.

ردت النادلة: أسمي (هيفاء).

ارتفع حاجباه، وقد بدا الاسم مألوفًا بالنسبة له، وقال: أسم جميل وغير معتاد.

ثم تذكر (هيام)، أخبرته من قبل أن اختها اسمها (هيفاء).

يالها من صدفة، ثم هل الآن وقت تذكر (هيام) التي قتلت نفسها!!، خطرت الرضيعة على باله لثانية فأسرع عقله يدفن الخاطرة.

قالت (هيفاء): ماذا أصابك؟! تبدو متضايقًا.

تساءل وهما يغادران المصعد:هل لديك شقيقات؟ أسرة؟

ردت: ليس لدي أحد، أنا أعيش وحدي في منزلي.

-فهمت.

أخرج المفاتيح وفتح باب الشقة، ثم أشار إليها بحركةٍ مهذبة كي تدلف أولًا قائلًا: تفضلي.

دلفت إلى المنزل الوثير الواسع فتوجهت إلى الأريكة في الصالة، وجلست واضعة ساقًا على ساق.

قال وهو يغلق الباب: ماذا تشربين؟ لدي قهوة وشاي ونسكافيه و... شامبانيا.

قالت باسمة: لنبدأ بالنسكافيه، نحتاج إلى التركيز،أليس كذلك؟

رد بخبث: التركيز!!!.. أجل طبعًا.

نهضت متسائلة: أين الحمام؟

أشار إلى ممر، وقال: في نهاية الممر.

توجهت إلى الحمام بينما توجه هو إلى المطبخ لإعداد النسكافيه.

أغلقت باب الحمام وتأملت الحمام الأنيق الواسع، وراحت تفتش بعيونها كل ركن، ثم توجهت إلى الحوض حيث ثبتت المرآة أعلاه، وأمامها تراصت الكريمات وغسولات البشرة ومشط وفرشاة شعر.

فتحت حقيبتها وأخرجت منها ظرفًا فارغًا، وتناولت عدة شعرات من الفرشاة ووضعتها، توجهت إلى الغسالة ففتحتها ووجدت قميصًا متسخًا فطوته باحتراف ووضعته في حقيبتها، وبعدها أغلقت حقيبتها وغادرت الحمام إلى الصالة.

بعد ثوانٍ، جاء (مروان) ومعه صينية صغيرة عليها كوبي النسكافيه، فقالت محرجة: معذرة، هلا ناولتني بعض الماء؟

عاد إلى المطبخ فملأ كوب ماءٍ من دورقٍ في الثلاجة ثم عاد إلى الصالة، بالطبع بينما هو يحضر الماء كانت (هيفاء) قد أخرجت مسحوقًا من حقيبتها ووضعته في النسكافيه، وقامت بتقليب الخليط سريعًا.

عاد (مروان)، فناولها الماء فشربت ثم جلس أمامها، وقال: إذًا، هل أخبرتك صديقتك (سارة) عن طبيعة العمل لدي في الشركة؟

ردت وهي تعيد وضع ساقٍ على ساق مما كشف عن الكثير من جسدها، وجعل (مروان) يتنحنح: أخبرتني الكثير، وأنا راغبة بالعمل لديك يا (مروان) بك.

-وقد تم قبولك.

وتناول النسكافيه وأشار إليها كي تتناول بدورها كوبها ففعلت، بدأ يرشف قليلًا ثم تأمل الكوب في حيرة، ثمة شيئًا ما في الطعم، بل وربما الرائحة.

استرخت (هيفاء) على الأريكة، وأرجعت ظهرها إلى الوراء وقالت: دعنا ننتهي من النسكافيه سريعًا كي نبدأ العمل من الآن.

رشف ثانية وهو يبتسم في اضطراب، هذا الطعم.. وضع الكوب باشمئزاز.

فجأة انتابه شعور اجتاح جسده، قلبه كأن هناك قبضة تعتصره، معدته كأن أحدًا ما قد قام بلف حبلٍ غليظ عليها، ثم فجأة شعر وكأنه يتلقى لكمات خفيفة خفية في معدته، رغبة عارمة في القيء وشعور مباغت بالنعاس، تطلع إلى (هيفاء) التي كانت تنظر إليه باسمة وهي ترشف النسكافيه باستمتاع.

حاول النهوض فلم يستطع، سقط على الأريكة من جديد.

قالت (هيفاء) وقد بدا صوتها غير واضح بالنسبة له: خطرت لي فكرة قتلك ومغادرة البلاد، ولكنني بعدها فكرت، إنك لا تستحق هذه الميتة السهلة، لا تقلق ولا تنظر إلي هكذا فأنا لم أدس لك سمًا، أريدك أن تظل حيًا أطول فترة ممكنة.

ونهضت ففتحت حقيبتها وأخرجت منها ورقة من جريدة وألقتها أرضًا، ثم غادرت.

بعد أن ظل (مروان) لدقيقة يلهث في ضعف شديد وكأنه يحتضر، انفجر القيء من فمه ثم فقد الوعي.

***

في الخامسة صباحًا تجمعت الطيور على الأشجار الكثيفة في الحي الراقي وبدأت تغرد في حماس واستمتاع.، بدأ (مروان) يستعيد وعيه ببطء، فتح عينيه بصعوبة وشعر بصداع فأعاد أغلاق عينيه لثوانٍ ثم فتحهما وتطلع حوله، أكواب النسكافيه مازالت موضوعة وبجوارها كوب الماء، تطلع إلى نفسه مشمئزًا فقد تقيأ على ثيابه الغالية وكان القيء مخلوطًا بالدم.

نهض و أسرع إلى حجرته وفتح خزانة الثياب وتفحص محفظته فوجد الأموال وكروت الائتمان كما هي ، أحضر ثوبًا وأسرع يحصل على حمامٍ ساخن ينظف به نفسه ويزيل عنه تلك القاذورات، الفتاة.. تلك الفتاة.. ماكان هدفها من كل هذا إن لم يكن السرقة؟!! الإنتقام ربما، قالت شيئًا ما ولكنه لا يتذكر بوضوح، ترى هل وضعت له سمًا بطيء المفعول أو مخدرًا أو مادة ما تسرطن أو تدمر شيئًا في الجسم.

أرتدى ثيابه بسرعة ومشط شعره، فكر في أن يشرب نسكافيه، ثم عدل عن الفكرة فورًا بعد أن تذكر ما حدث بالأمس، ربما لن يقرب النسكافيه ثانية طوال حياته، غادر الشقة برغم أن الوقت مازال باكرًا جدًا.

أنطلق بسيارته في شوارع القاهرة الخالية في هذا التوقيت، حتى وصل في السادسة والنصف صباحًا إلى المطعم، فظل واقفًا

بالسيارة أمامه، وغفل قليلًا، حتى بدأ العمال يتوافدون للعمل في الثامنة صباحًا، بدأوا يشرعون في إعداد الموائد وتنظيف الأرضية، فتوجه إلى المطعم ومنه إلى رئيس القسم لأن صاحب المطعم لم يصل بعد، وقال للرئيس: عفوًا، أريد أن أسأل عن النادلة التي تعمل لديكم، قامت بخدمة طاولتي مرتين واسمها (هيفاء).

هز الرئيس رأسه وقال في ضيق: لقد استقالت بالأمس مساءً يا بك.

-ما.. ماذا؟

-قدمت استقالتها فجأة بالأمس مساءً دون سببٍ واضح، إنها غير طبيعية.

-هل لديك فكرة عن عنوانها؟

-إنها عاملة جديدة، لقد تقدمت للعمل في المطعم منذ عشرة أيام فقط وقد تم قبولها، ملفها في مكتب صاحب المطعم يا (مروان) بك.

-متى سيأتي (حاتم) بك؟

-إنه يأتي في العاشرة أو الحادية عشر صباحًا.

-شكرًا لك.

وأسرع يغادر المطعم، فتوجه نحو معمل تحاليل شهير يقع أحد فروعه في المنطقة، وقال لموظفة الاستقبال: أريد القيام بجميع التحاليل بلا استثناء.

تطلعت إليه الموظفة، وغمغمت: هل معك روشتة الطبيب؟

-ليس معي، أنا أريد التحاليل من تلقاء نفسي.

ردت مرتبكة: ولكن يا سيدي بعض التحاليل تحتاج إلى ظروف معينة للقيام بها، مثلًا تحليل السكري...

قاطعها بعصبية جعلتها تجفل: سأقوم بالتحاليل الممكنة إذًا، تحاليل بول ودم وبراز، كل شيء يمكن القيام به الآن.

توجه نحوه أحد الأطباء بحذر، وقال: هل تشك أن لديك مرضًا معينًا؟

رد (مروان): أريد الاطمئنان على نفسي، لذا لا داعٍ لتضييع الوقت ولنبدأ التحاليل.

حصل الطبيب على عينة الدم والبول واستغرقه الأمر ساعة ونصف حتى يمنح الطبيب عينة البراز.

كان (مروان) متوترًا بشكلٍ واضح، وقد أخبره الطبيب الذي حصل منه على العينات: بعض أنواع التحاليل ستستغرق وقتًا، النتائج النهائية ستكون جاهزة خلال 3 أيام.

تساءل (مروان) بعصبية: أريد نتائج أسرع من ذلك، هل يمكنك هذا؟

-يمكنك المرور بعد العصر للحصول على بعض النتائج، بقية التحاليل بعد 3 أيام.

تطلع (مروان) إلى ساعته السويسرية، لم يعد الكثير من الناس يرتدون ساعات وأغلبهم يعرف التوقيت من هاتفه المحمول

أو الاجهزة اللوحية.

غمغم: حان وقت العودة إلى المطعم.

وتوجه بسيارته إلى المطعم من جديد، كان صاحب المطعم على علاقة صداقة سطحية ب (مروان) بحكم أنه زبون للمطعم منذ 20 عامًا تقريبًا، فرحب به وادخله مكتبه، ثم قال: أخبرني الموظف أنك تسأل عن تلك الموظفة المستقيلة.

رد (مروان): أريد أن أعرف عنوانها وكل معلوماتها.

-هل يمكنني أن أسألك عن السبب وراء رغبتك في الاطلاع على ملفها؟

-مع الأسف لن استطيع الإجابة حاليًا، لقد أستقالت بالأمس، لم تعد موظفة لديك لتقلق بهذا الشكل، لا مسئولية على عاتقك تتحملها.

لوح صاحب المطعم بيده وقال: عفوًا يا بك، لم يكن هذا مقصدي، لحظة واحدة (وعبث في أحد أدراج المكتب)، هممم... ها هو الملف، فيه صورة الرقم القومي واستمارة العمل وصورة الفيش والتشبيه.

مد يده بالملف، فتناوله (مروان) في لهفة، وراح يتفحص محتوياته قبل أن تتسع عيناه ويحمر وجهه في انفعال، ثم يهتف: تلك ال.. إنه نفس العنوان، نفس اسم الأب والأم، إنها شقيقة (هيام)، كنت أشك في ذلك.

تساءل صاحب المطعم في حيرة: عفوًا!

نهض (مروان) فأعاد الملف إلى الرجل، وقال: شكرًا لمساعدتك.

وأسرع يغادر بخطوات سريعة، انطلق بسيارته إلى عنوان (هيفاء) وهو يسب ويلعن، وقال لنفسه: أحمق وغبي، كيف لم تأخذ حذرك، من يدري ماذا دست لك في النسكافيه لتنتقم منك، تلك المخبولة هي وأختها، مهلًا حتى أصل إليكِ.

كان البنزين يوشك على النفاذ من السيارة، فتوقف في إحدى المحطات ليملأ السيارة وهو يضرب بأصابعه على المقود في توتر ونفاذ صبر، وكأن هذا ما ينقصه، تلك الفتاة لو أختبأت تحت الأرض فسوف يصل إليها.

وصل إلى العنوان فتوجه مندفعًا إلى المصعد، ومنه إلى الطابق الخامس، كان يعرف عنوان (هيام) من قبل، فقد التقى بها مرة في منزلها وكانت لوحدها، كانت هناك صورٌ لأسرتها ولو أنه تنبه إلى ملامحهم لتعرف على (هيفاء)، طرق جرس الباب بغضب دون أن يتلقى رد، بدأ يطرق على الباب بغضبٍ مجنون حتى كاد يحطمه.. دون رد، هنا كان الغضب قد تملكه بالكامل.

صرخ: افتحي الباب أيتها الحقيرة الكاذبة، افتحي.

ركل الباب من جديد، وعاد يصرخ: قلت افتحي الباب وإلا حطمته، وجررتك إلى الشارع جرًا.

هنا فُتح باب الشقة المقابل، ووقفت امرأة مسنة بثياب المطبخ تتطلع إليه في حيرة، فقال بلهجة حاول جعلها هادئة: هل (هيفاء) موجودة؟

تساءلت الجارة: هل أنت (مروان) بك؟

تطلع إليها (مروان) وقال: كيف عرفتِ؟!!

هزت رأسها وقالت: (هيفاء) قد غادرت وتركت لك رسالة معي.

-غادرت!! إلى أين؟

-تنازلت عن الشقة لصاحبة العقار، وحصلت على بعض المال، وكان الاتفاق إخلاء الشقة اليوم صباحًا، وقالت إنها ستغادر إلى إسبانيا حيث أقارب والدتها ولن تعود إلى مصر ثانية، مسكينة.. لقد توفيت شقيقتها منذ اسبوعين وأصبحت الفتاة وحيدة.

هتف (مروان): لن تعود!! هل أنتِ متأكدة؟

-هذا ما قالته، لحظة سأحضر لك الرسالة.

وغابت المرأة لدقيقة، ثم عادت حاملة ظرفًا منحته إياه، وعادت تغلق الباب على نفسها.

حدق (مروان) في الظرف لثوانٍ، ثم فضه وقرأ محتواه:

"خلال شهر على الأكثر ستصبح نزيلًا لمستشفى الأمراض العقلية، وهو مصير تستحقه عن جدارة، لن يرحمك سوى الموت، يمكنك دائمًا أن تشنق نفسك في الصالة، مجرد نصيحة".

أطلق (مروان) سبة، ثم وضع الخطاب في جيبه لعله يحتاجه فيما بعد، هبط الدرج وفي الطابق الأول فتحت الباب إحدى الجارات وهتفت به: أنت.

تطلع إليها متسائلاً فقالت: احذر من تلك الفتاة، فهي ساحرة تقوم بالأعمال السفلية.

قال مستهجناً: ماذا؟! ياللجهل! عودي إلى منزلك أيتها الجاهلة.

لم يكن (مروان) يقصد التحدث بلهجة عدوانية ولكن أعصابه المتوترة وغضبه جعله يقول ماقال، تطلعت إليه الجارة في غضب، بينما هو يغادر المبنى.

***

بينما يقود السيارة ارتفع رنين هاتفه، إنها والدته تعاود الاتصال به.،كان معتادًا على الذهاب إلى فيلا والديه وقضاء يومي

الأجازة هناك، وتناول الإفطار معهم، وضع السماعة على أذنه وقال: مرحبًا ماما، آسف.. أنا متعب اليوم قليلًا، سآتي غدًا حتمًا أو ربما أمر مساء اليوم، لا تغضبي.. أجل، بالطبع.. حسنًا، سأحاول القدوم بعد العصر.

عاد إلى شقته فدلف وخلع المعطف وجلس ليستريح قليلًا، الرائحة في الصالة كريهة بسبب القيء، قرر النهوض وتنظيف

المكان، ومع أذان العصر كان قد انتهى وعثر على ورقة من جريدة ملقاة في ركن الصالة وضعها في سلة المهملات، ثم

نهض ليأخذ حمامًا ويذهب إلى الصالة الرياضية.

بعد ساعة من الرياضة، توجه إلى المعمل وحصل على بعض نتائج الفحوصات والتي كانت جميعها سليمة تمامًا، ومع ذلك سينتظر النتيجة المتبقية.

شعر بشيء من الإنتعاش والمرح بعد نتيجة الفحوصات، فراح يصفر ويردد مع أغنية تذاع على الراديو ويستمع إليها بينما يقود السيارة، وقد قرر التوجه إلى فيلا والديه الآن، ثم تذكر...

***

ونهضت ففتحت حقيبتها وأخرجت منها ورقة من جريدة، وألقتها أرضًا، ثم غادرت.

***

تلك الورقة التي ألقاها في سلة المهملات، يا له من أحمق، أنه لايقرأ الجرائد أصلًا فمن أين أتت الورقة إن لم تكن (هيفاء) هي مصدرها!! أسرع بالتوجه إلى منزله أولًا، عليه أن يلقي نظرة على تلك الورقة.

أسرع بالصعود إلى شقته بينما حارس العقار (رضا) يتأمله ويتمتم بشيء ما.

دلف إلى المنزل وحمل سلة المهملات في الصالة وراح يتفحصها حتى وجد صفحة الجريدة، بها بعض الاعلانات، قلب الصفحة على الجهة الأخرى فوجد أخبار الحوادث.

غمغم: هكذا إذًا.

ولكنه لم يجد الخبر الذي توقعه وهو انتحار (هيام)، بل وجد أخبارًا أخرى، القبض على سائق يتعاطى الحشيش، رجل قتل زوجته، القبض على موظف بتهمة الرشوة، العثور على رضيعة مجهولة الهوية.. مهلًا.

وقبضت يده على الورقة.. أعاد قراءة تفاصيل الخبر "عثر بعض المواطنون فجر اليوم على جثة طفلة رضيعة حديثة الولادة مجهولة الهوية ملقاة في صندوق القمامة وقد التهمت الكلاب الضالة أجزاًء من جسدها.. هذا وقد قاموا بالاتصال بالشرطة التي أسرعت بالتوجه إلى موقع الحادث حيث توجه كلًا من النقيب (...) والمقدم (....)... إلخ، ويشير التشريح المبدئي للجثة بأن سبب الوفاة يرجع إلى الانخفاض الشديد في درجة حرارة الجسم حيث تجمدت الرضيعة حتى الموت، وقامت بعدها الكلاب الضالة بالتهام أجزاءٍ من جسدها".

ظل (مروان) مجمدًا في مكانه، ينظر إلى الصفحة بعين غير مصدقة شاردة، إذًا فهو لا خطر عليه تقريبًا.. لم تعد الطفلة حية حتى يتم رفع قضية نسب مثلًا.. لم تعد الطفلة حية.. تلك ميتة بشعة لا تستحقها تلك الطفلة البريئة. كان (مروان) يفضل لو أن (هيام) غادرت بها البلاد أو أعطاها هو إلى أسرة فقيرة ترعاها مقابل مبلغٍ كل شهر.

ابتلت الصفحة بدموعه التي سالت، غريبٌ هذا، الغريب أنه يبكي ولكنه لا يشعر بشيء، مشاعره في تلك اللحظة مجمدة لا مبالية.. ليس حزنًا عميقًا مما يدفع إلى البكاء! فلماذا يبكي بحرقة الآن؟ وكأن عيناه لها مشاعر خاصة تختلف عن قلبه.

ألقى الصفحة في السلة من جديد، ودلف إلى الحمام فغسل وجهه، أحضر ثيابه الرياضية ليضعها في الغسالة، ثم توقف وهو يتطلع إلى الغسالة في حيرة، هناك قميص قد وضعه فيها ليقوم بغسله فأين اختفى؟! ثم أنعقد حاجباه في غضب.. تلك المجنونة سرقت قميصه، ودست له شيئًا ما جعله يتقيأ ويفقد الوعي، وتركت له ذلك الخبر المؤلم.. حسنًا.. إن كانت تظن أن بوسعها أن تسحره أو تقوم بما قالت عنه الجارة أعمال سفلية فلتفعل.. إنها حمقاء حقًا.

ارتدى المعطف وغادر إلى حيث فيلا والديه، ولم ينسى في الطريق الاتصال ب (ناجي) المحامي، فلما أجابه، قال: مرحبًا يا أستاذ، أريد منك التأكد من مغادرة شخصٍ ما البلد اليوم.. غالبًا المطار.. سأعطيك أسمها بالكامل.

أما آخر خطوة فهي الاتصال ب (سارة)، أرسل لها رسالة على الفيسبوك ففوجيء بها ترد بعد دقائق، أتصل بها فمازال

يحتفظ برقمها، هتفت في حماس وهي تصيح: لا أصدق نفسي، (مروان) بك يتصل بي شخصيًا، كم أوحشتني!!

رد مجاملاً: وأنتِ أيضًا، لست من النوع الذي يمكن نسيانه بسهولة.

أتته ضحكتها المليئة بالدلال، فعاد يقول: سمعت أنك ستتزوجين قريبًا.

-هذا صحيح.. حسنًا.. كانت لديك الفرصة وقد أضعتها.

-أنا مستعجل الآن، ولكنني سأتصل بك حتمًا لنتحدث مطولًا فيما بعد، الآن أريد أن أسألك هل تعرفين فتاة تدعى (هيفاء)؟

فكرت لثوانٍ، ثم قالت: كلا، لا أعرف سوى المطربة (وضحكت في استظراف).

-هذا ما توقعته على أي حال، إلى اللقاء الآن.

ودلف بالسيارة إلى فيلا والديه، إذًا فقد استغلت (هيفاء) حتمًا اسم (سارة) كي توقعه لا أكثر، لا شك أنها سمعت الاسم من أختها (هيام) والتي كانت تغار من (سارة) بشدة، لعل (هيام) ذكرتها عدة مرات لأختها.

ترجل من السيارة وتوجه ليحتضن أخاه (خالد).

حتى الآن أموره على مايرام.

***

الفصل الثالث

(البداية)

انتهت أجازة الأسبوع سريعًا وحان وقت عودة (مروان) إلى منزله، فقبل جبين والدته ووالده واحتضن أبناء اخيه، ثم غادر في سيارته.

كانت (ميرفت) قد تعرضت قبل ولادة (مروان) لإجهاض أول مرة وتسمم حمل في المرة الثانية، ثم مرت عدة سنوات ورزقت ب (مروان) ولهذا كان لميلاده وقع رائع في حياة والديه الذان طالما رغبا وحلما بأنجاب طفل، ولهذا بالغا في تدليله وأفرطا في حمايته في سنوات عمره الأولى حتى رزقا ب (خالد) ليحصل على بعض الاهتمام وتتزن الأمور، بيد أن (مروان) ظلت له المكانة الخاصة بشكلٍ ما، ولهذا وافق والديه على مضض على قرار استقلاله في منزل خاص، ووضعوا شروطًا.. منها أن يتحدث معهم يوميًا، وأن يبيت عندهم في أجازة الأسبوع، وأن يتناول معهم الغداء أو العشاء عدة أيام في الأسبوع. بمرور الوقت وزواج (خالد) وإنجابه لحفيدين يملأن الفيلا صخبًا أصبحا يتقبلان قرار (مروان) بشكلٍ جيد.

أما (مروان) ومع حلول المساء ومغادرة الفيلا عودة إلى منزله القريب، أشعل المذياع وراح يدندن مع لحن الأغنية في استمتاع بينما يقود سيارته، كل أموره بخير، نتيجة التحاليل أكدت انه سليمٌ تمامًا.. المحامي (ناجي) أخبره أن (هيفاء) قد غادرت البلاد فعلًا إلى إسبانيا.. خطيبته كانت عندهم في الفيلا بالأمس مع والديها وقد تناولا الغداء وتحدثا معًا، لم يحبها بعد ولكنه يميل إليها ويعلم أنه سيحبها قريبًا.

أوقف سيارته في مرآب البناية، ثم غادر متوجهًا إلى المصعد وألقى التحية بلامبالاة على (رضا) البواب، الذي قال: هناك رسالة لك يا بك في صندوق الرسائل.

غمغم (مروان): رسالة؟

وفكر أنها ربما من أحد البنوك، توجه إلى صندوق الرسائل ففتحه بالمفتاح الصغير الموضوع في سلسلة المفاتيح وأخرج الرسالة وقرأ العنوان فشعر بالغضب، لم تأتي عن طريق البريد فليس عليها طوابع ولا عناوين فقط وجه مبتسم وتحته توقيع الاسم.. لم يستطع صبرًا فمزق المظروف وفتح الرسالة ليقرأ جملة واحدة "البداية اليوم".

قال: مخبولة كأختها.

ومزق الرسالة وألقاها في سلة القمامة الموضوعة أمام نظرات (رضا) الفضولية المتعجبة، وركب المصعد صاعدًا إلى شقته فلما دلف وأغلق الباب خلع معطفه فألقاه على المقعد وجلس قليلًا يفكر.. هل الفتاة ساحرة حقًا؟ هل يوجد شيء كهذا في الواقع؟ أم أن السحر كان يمارس في الماضي السحيق وأنقرض.

نهض فتوجه إلى حجرته فخلع ثيابه، وارتدى منامته ثم توجه إلى الحمام للاغتسال وهو يفكر.. البداية اليوم! بداية ماذا؟

كان هذا حينما نظر إلى انعكاسه في المرآة.

***

أجفل (مروان) وقد شعر بالذعر وهو يتأمل انعكاسه في المرآة.. كان وجهه مليءً بالتجاعيد وقد أبيض أغلب شعر رأسه،

فجأة بد وكأنه في أواخر الستينات من العمر، مد يده يتحسس المرآة ثم تحسس وجهه في خوف.. لا شيء.. ملمس وجهه ناعم وسليم.

فجأة انقطعت الكهرباء في المنزل.

شهق مذعورًا، ثم تراجع مغادرًا الحمام، ووجد صعوبة بالغة في الرؤية وقد أصبح الظلام الدامس هو ما يحيط به.

هتف في غضب: هل هذا وقت انقطاع الكهرباء؟!

كان في صوته رنة خوف وقلبه يتسارع في نبضاته من الانفعال والتوتر، ولكنه تنفس بعمق ليتماسك، ثم توجه إلى المطبخ وهو يمد يده يتحسس ما حوله حتى لا يصطدم بشيء، يوجد في المطبخ شموع سيشعلها كي تبدد هذا الظلام المخيف.

بالطبع فإن هاتفه المحمول كان قد انتهى شحنه وبحاجة للشحن من جديد كأي هاتف ينتهي شحنه عندما تكون في أمس الحاجة للاتصال أو لإضاءة الشاشة.

راح يتحسس الموقد حتى لمس زر الإشعال الذاتي فضغطه وهو يدير أحد مفاتيح عيون الموقد، أشتعلت العين لتخرج

قبسًا بسيطًا من الإضاءة يحتاجه كي يصل إلى الشموع، استدار كي يفتح أحد الأدراج لإخراج الشموع حينما لمح بطرف عينيه شخصٌ ما يقف في الظلام في ركن المطبخ.

***

كان (رضا) قد أعد العدة لبعض السهر، أغلق باب المبنى وأعد كوب الشاي والسيجارة وفتح التلفاز على فيلم السهرة حينما أتاه صوت (مروان) العصبي المنفعل يناديه، زفر في ضيق، وتمتم: ماذا الآن؟!!

ثم نهض متوجهًا إلى المصعد.

وكان (مروان) قد شعر بذعر حقيقي جعله يتراجع ويسقط حينما لمح هذا الشخص، ثم عاد ينظر إلى نفس المكان وضربات قلبه تتسارع أكثر بينما مازال على الأرض عند باب المطبخ، لا شيء، لا احد يقف هناك، ترى هل يتوهم؟ أم أن هناك لصًا لعله يختبيء خلف الثلاجة مثلًا.

أستجمع شجاعته ونهض، إن كان لصًا؛ فسوف يقبض عليه فهو رجل ورياضي وليس ممن يتراجعون في خوف. بجرأة.. عاد إلى المطبخ ففتح الدُرْج وأخرج إحدى الشموع وسكينًا كبيرًا، فأشعل الشمعة وهو يتطلع إلى أركان المطبخ بحذر ثم راح يفتش المطبخ وهو يشهر السكين، لا أحد.. إنه يتوهم إذًا.

غادر المطبخ حاملًا الشمعة المشتعلة بحذر بينما مازال يشهر السكين، هنا تنبه أن الكهرباء مقطوعة في منزله فقط، فقط لاغير، ولم تنقطع في الحي أو في البناية.

هتف: ما الذي....؟

ثم عادت الكهرباء واشتعل ضوء الصالة والحمام.

استدار (مروان) حول نفسه في توتر لأنه تفاجأ بعودة الكهرباء المباغتة كما تفاجأ بأنقطاعها، ثم زفر ووضع الشمعة على

الطاولة الصغيرة دون أن يطفئها من باب الاحتياط، جلس على الأريكة وهو يشعر بأن قدمه ترجف قليلًا بفعل الأدرينالين،

فقد تعرض لجرعة رعب لا بأس بها خلال الخمس دقائق الماضية.

هنا نظر في ذهول إلى المشنقة المعلقة في السقف، سقف الصالة، عاد يشهر السكين، وهتف: خير لك أن تظهر الآن أيها الوغد، سأتصل بالشرطة.

لم يتلقى ردًا، فعاد يهتف: هل هذه هي خطتك يا (هيفاء)؟ تدفعين مالًا لشخصٍ ما كي يتسلل إلى المنزل ويخيفني...

صمت مطبق.

تراجع إلى باب الشقة ففتحه ثم توجه إلى السلم بينما عيناه لا تفارقان باب الشقة فهو لن يسمح لهذا المتسلل بالمغادرة، وصاح مناديًا البواب، بعد قليل صعد (رضا) وقد بدا متضايقًا، فهتف به (مروان): ما الذي تفعله بالضبط أيها الأبله على باب العمارة؟ هناك متسلل في منزلي.

هتف (رضا): ما.. ماذا؟ هل نبلغ الشرطة يا بك؟

-بالطبع سأفعل، ولكن سأقبض عليه أولًا، هيا تحرك معي.

بتردد وخوف تبع (رضا) (مروان) إلى داخل الشقة، وقال الأخير مشيرًا إلى السقف حيث علقت المشنقة: أنظر ماذا فعل بينما أنت نائم!!

تطلع (رضا) إلى السقف، ثم قال في حيرة: ماذا فعل يا بك؟

صاح (مروان): هل أصبت بالعمى الآن؟ أذهب وفتش الحمام، وأنا سوف أفتش حجرتي وحجرة الضيوف.

نفذ (رضا) ما طلبه (مروان) وهو يغمغم لنفسه أن هذا البك ليس على مايرام، لعله تناول الخمور ولا يدري ما يفعل.

بعد دقائق عاد إلى الصالة، وقال ل (مروان): لا يوجد أحد يا بك.

قال (مروان) في حيرة: لعله هرب عبر الشرفة، جميع النوافذ مغلقة من الداخل.

وهز رأسه وقال: سوف أبلغ الشرطة.

بدا الضيق على البواب إذ أن إبلاغ الشرطة يعني أنهم سيعتصرونه ويستجوبونه باعتباره حارس العمارة، وغمغم: طالما هرب فهل من داعي لإبلاغ الشرطة.

-هل جننت؟هل أتجاهل تهديده لي بهذا؟ (وأشار إلى السقف).

قال (رضا) في حيرة: ولكن يا بك، لا يوجد شيء.

-وماذا عن تلك المشنقة؟

-أي مشنقة؟

-تلك المعلقة أيها الغبي، ماذا بك؟!

-يا بك أقسم بالله لا يوجد شيء معلق.

-.....

-يا بك، لمَ لا تستريح قليلًا؟ لعلك متعب.

-هل تعني أنك لا ترى المشنقة؟!!

-لايوجد شيء.

-هل تعمل معها؟

غمغم (رضا) في حيرة: مع من؟!!

صاح (مروان): (هيفاء)، كم دفعت لك؟

رد (رضا) مستنكرًا: أنا لا أعرف أحدًا بهذا الاسم. يا بك، يمكنك أن تنادي الجيران وتتأكد منهم، لا يوجد شيء معلق.

-.....

***

قال (أشرف): هل أنت بخير؟ يبدو عليك الأرهاق.

رد (مروان) بضيق: بخير، هل جميع التقارير جاهزة؟

-أجل، وعلى مكتبك وكذلك أرسلتها لك بالبريد الإلكتروني.

-جيد.

ثم غادر إلى مكتبه، بينما نظر (أشرف) إلى حيث غادر صديقه ورئيسه في حيرة، ثم تبعه صامتًا ولما دلف إلى مكتبه حاول تلطيف الأجواء فتساءل: ماذا عن الصاروخ؟ النادلة.. هل تنوي توظيفها؟

رد (مروان) بغضب: أنها (هيفاء) شقيقة (هيام) رحمها الله.

هتف (أشرف) غير مصدق: ماذا؟!! معقول.. يالها من مصادفة غريبة.

-ليست مصادفة، بل كانت تخطط للأمر برمته، على كلٍ هي قد غادرت مصر وغالبًا لن تعود.

تساءل (أشرف) في فضول: هل كانت تحاول ابتزازك للحصول على مال؟

رد (مروان) باسمًا في سخرية: بل تسعى للانتقام كما يحدث في الأفلام والمسلسلات، لقد دست لي شيئًا ما في النسكافيه أفقدني الوعي، لا تقلق... لقد قمت بعمل التحاليل وأنا بخيرٍ تمامًا.

-كان عليك إبلاغ الشرطة.

-حتى يفتضح الأمر، كلا طبعًا، لقد انتهى الموضوع بسلام، ولم أعد أرغب في التحدث فيه.

ثم أشار إليه ليجلس ليتناقشا في العمل.

***

مع حلول المساء عاد (مروان) إلى منزله، دلف إلى المنزل وأشعل ضوء الصالة وخلع معطفه كعادته، وجلس على المقعد الوثير، غدًا سيذهب مع خطيبته ليشتريا غرفة النوم، لقد تقرر أن يسكنا في شقة في التجمع الخامس وسيظل بيته موجود حيث يمكن تركه لابنه في المستقبل مثلًا أو ربما بيعه فيما بعد. وكان (مروان) يحب شقته هذه وقد عاش فيها لسنوات طويلة ولكن (مها) تريد شقة جديدة وكأنها تلمح له أنه سيبدأ معها صفحة جديدة تمامًا من حياته، وعليه أن يودع الماضي بما في ذلك شقته الأثيرة.

نهض متوجهًا إلى الحمام، وبحذر.. ألقى نظرة على المرآة، لا شيء.. انعكاسه طبيعي تمامًا، هذا جيد.

كان قد اشترى معه بعض الشطائر لتناول العشاء، فارتدى منامة ثقيلة، و توجه إلى الثلاجة، فأخرج زجاجة ماء شعير، وراح يلتهم الطعام ويشرب، ثم نهض ليغسل أسنانه وتوجه إلى الحجرة الصغيرة الملحقة بالصالة، وبها التلفاز ومكتبة صغيرة تحوي بعض الكتب والمجلات التي لم يقرأ معظمها، شاهد فيلمًا غربيًا كوميديًا، ثم نهض لينام، أغلق الأضواء وتدثر بالأغطية وراح يفكر قليلًا في (هيام).. كانت تحبه بعمق ولكنه كان دائمًا يشعر بأن حبها له ليس على مايرام، شعر بأن هناك الكثير من التعلق وربما الهوس المخالط لهذا الحب، لم يخطر بباله أن يصل الأمر بها إلى الانتحار، ولكن لماذا يفكر بها الآن؟ إنه مرهق بشدة فقد كان ضغط العمل اليوم شديد، سوف ينام بعمق...

صوت صرير خفيف جدًا مصدره أرضية الغرفة، إنه نائم بالفعل ولكن جزءً صغيرًا من عقله يشعر بما حوله، لم يصل بعد إلى مرحلة الانفصال التام، ولم يكن نومه في نفس الوقت سطحيًا بحيث ينهض لينظر إلى من يتحرك الآن على خشب الأرضية، الظلام في الحجرة على أية حال سيخفي ملامح الشخص الذي يبدو كامرأة مبعثرة الشعر قليلًا تسير بثقة وهدوء إلى حيث السرير الوثير، مالت لتقترب من (مروان)، مدت يدها التي كانت تحمل أظافر طويلة بشكلٍ مخيف وراحت تحاول إبعاد الأغطية، تريد أن تستلقي بجواره.

ولإنه من الصعب نوعًا أن يحدث كل هذا دون أن يشعر به النائم فقد أستيقظ (مروان) قليلًا، فتح عينيه بصعوبة ونظر إلى حيث وقفت المرأة في الظلام أمام سريره مباشرة، لا يتبين ملامحها ولكنه شعر بأنه لا يريد ذلك، أنتفض في رعب وأطلق صيحة قابلتها المرأة بصرخة طفل رضيع، أجل، هكذا كان صوتها وعلى الفور غرست أظافرها الطويلة التي تبدو كالمخالب في صدره، وكأنها تسعى إلى انتزاع قلبه. صرخ (مروان) في ذعر وهو يحاول إلقائها بعيدًا عنه بعد أن قفزت لتجثم على صدره بينما أظافرها تنغرس أكثر وصرخة الطفل الرضيع المتألم تصدر من حلقها دون توقف.. واااء.. واااء.. واااااء..ثقيلة جدًا، هذا وزن غير طبيعي وكأنه يحاول رفع سيارة أو كتلة من الحديد الضخم، برغم قوته لم يستطع أن يزحزحها.. بدأ يصرخ من الألم.. أظافرها كالسكاكين الحادة، الدماء تسيل من موقع القلب مع الألم، ثم فقد الوعي.

***

تساءلت (مها): هل تعجبكم تلك الغرفة؟

ردت (ميرفت): ذوقك رائع يا عزيزتي.

وقالت والدة (مها): جميلة للغاية.

تطلعت (مها) إلى (مروان)، الذي كان شاردًا بشكلٍ واضح فتأبطت ذراعه، وقالت: مارأيك؟

غمغم: موافق.

تطلعت إليه في حيرة مستغربة ذلك الرد، فقالت (ميرفت) وهي تمسك كف يده: ابني، هل أنت بخير؟

رد متظاهرًا بالهدوء: أجل.. فقط مرهق قليلًا بسبب العمل.

غمغمت بقلق: هل ذهبت إلى طبيبٍ كي يفحصك؟

ابتسم قائلًا وهو يربت على كف يدها: لا داعي لهذا.

ثم قال لخطيبته بحماس مفاجيء: ما رأيك أن ننتقي حجرة الطعام وبقية الأثاث كذلك، المعرض مذهل به أثاث ممتاز.

بعد ساعتين كان (مروان) يوصل والدته إلى الفيلا، ثم أوصل خطيبته ووالدتها وغادر مسرعًا معتذرًا عن تناول العشاء معهم في المنزل أمام نظرات (مها) التي تشي بالحيرة.

قالت والدتها: لقد وافق على كل ما انتقيناه كأنه إنسانٌ آلي مبرمج.

ردت (مها): لا يبدو لي أنه بخير، إنه يخفي أمرًا ما عني.

أما (مروان) فقد حاول إقناع نفسه وهو يقود سيارته أن الأمر به خدعة ما، هناك من يتسلل إلى شقته ويقوم بتلك الأشياء لإفزاعه. وكان بعد أن فقد الوعي بالأمس لعدة دقائق قد عاد يستيقظ وكان هذه المرة وحده في المنزل تمامًا، نهض ليضمد جرحه جهة القلب حيث كان ينزف فوجد أنه لا يوجد أثر لأي شيء.

ترجل من السيارة أمام مبنى به معمل تحاليل شهير فصعد إليه، وقال لموظفة الأستقبال: مساء الخير، كنت قد قمت ببعض التحاليل من قبل في معمل (...)، ولكنني أريد إعادة تلك التحاليل كلها في معملكم، وأريد كذلك المزيد من التحاليل إن وجدت.

-أي نوع من التحاليل يا سيدي؟

-جميعها، جميع التحاليل الموجودة في قواميس الطب، وأعلم أن هناك تحاليل تحتاج إلى الصيام وتحتاج إلى ظروف معينة، لهذا سأمر عليكم غدًا كي أكمل التحاليل، أما الآن فلنقم بجميع التحاليل الممكنة.

حدقت فيه الموظفة، ثم غمغمت: حسنًا، أريد بياناتك كي أقوم بتسجيلها على الحاسب.

بعدها عاد إلى منزله وهو يقدم قدمًا ويؤخر الأخرى، كان يشعر بالخوف حقًا مما قد يحدث له اليوم، حينما فكر فيما حدث في اليومين الماضيين أعترف لنفسه أن الأمر فيه شيءٌ من الخوارق غير الطبيعية، لا يمكن لشخصٍ يتسلل إلى منزله أن يجعل المرآة تعرض انعكاسًا غير انعكاس صورته، ولا يمكنه أن يعلق مشنقة لا يراها سواه.. والأهم لا يمكنه أن يمزق جزءً من لحمه ثم يختفي الجرح تمامًا دون أدنى أثر خلال دقائق.

كان الوقت قد تأخر وقد قام (رضا) بإغلاق باب البناية، فأخرج (مروان) مفتاح الباب ثم دلف وأغلقه، وطرق باب حجرة البواب الذي نهض من نومه وفتح باب حجرته الصغيرة وقد بدا عليه النعاس والضيق، وغمغم: خيرًا يا (مروان) بك؟!

قال (مروان): أريد لك أن تعثر لي على خادمةٍ من بلدتك تقيم في البيت وتنظف الشقة وتعتني بها.

بالطبع لن يخبره أنه يشعر بالخوف من بقاءه في الشقة وحيدًا.

تطلع إليه (رضا) في استنكار، ثم قال بلهجة حاول أن يجعلها مهذبة: مستحيل يا بك، نحن قرية محافظة ولن تقبل أي أسرة إرسال ابنتها إلى شقة رجل أعزب.

قال (مروان): لتكن امرأة عجوز، أنا لا يهمني عمرها.

رد (رضا) في برود: لن يقبل أي ابن أن يرسل والدته للخدمة في البيوت.

تأمله (مروان) في غيظ، ثم قال: عد إلى نومك إذًا.

وتوجه إلى المصعد فصعد إلى شقته، ودلف إليها بحذر، ثم أغلق الباب وجلس على المقعد الوثير في الصالة.. أن تبقى وحيدًا في منزلٍ مسكون أمرٌ مرعب.

أشعل التلفاز، وراح يتنقل بين القنوات بجهاز التحكم حتى توقف عند قناة للقرآن فرفع الصوت وترك التلفاز يعمل وراح يبدل ثيابه.. وقف أمام مرآة خزانة الثياب وتأمل موضع القلب وتحسسه بحذ،لا جروح.. لا أثر لأظافر مجنونة كانت تحاول تمزيق اللحم.

ارتدى منامته وتوجه إلى الحمام فغسل وجهه وأسنانه، ثم عاد إلى حجرته فترك ضوء الحجرة واستلقى على سريره وقد تدثر بالأغطية.

هل ينام؟ ترى عندما يستيقظ ماذا سيجد أمامه؟ لن ينام في الحجرة. نهض وهو يجذب الأغطية إلى حيث الحجرة الملحقة بالصالة حيث التلفاز فخفض الصوت قليلًا واستلقى على الأريكة، سوف ينام بجانب التلفاز، بينما القرآن يقرأ.

***

كان مرهقًا.. لهذا وبرغم صوت التلفاز فإنه سرعان ما غرق في النوم، مرت أربع ساعات تقريبًا حينما تسلل إلى أحلامه صوت قطرات ماءٍ تتساقط.. أضطرب نومه وفتح عينيه يتطلع حوله، مازال التلفاز مشتعلًا وصورة الحرم المكي معروضة بينما صوت الشيخ يتلو أيات القرآن، لا أحد موجود لحسن الحظ ولكنه لاحظ قطراتٍ من الدم على الأرض.

اعتدل في جلسته ثم نهض برغم برودة الجو يتحسس القطرات، إنها دماءٌ بالفعل، قطرات متوجهه خارج الحجرة، اضطربت دقات قلبه، بينما راح يبحث في الحجرة حتى عثر على سكين صغير موضوعٍ على مائدة الطعام بجوار طبق الفاكهة فتناولها وغادر الحجرة في حذر متتبعًا قطرات الدم على الأرض، وكان قد ترك قبل نومه جميع الغرف مضاءة على سبيل الاحتياط، لا يريد لشيءٍ ما أو شخصٍ ما أن يفاجأه في الظلام، قطرات الدم توجهه إلى الحمام، راح يقرأ المعوذتين وهو يسير متظاهرًا بالشجاعة، لم يكن السبب هو عدم شعوره بالخوف، بل هو الغيظ.. أن تنجح تلك الفتاة (هيفاء) في تخريب حياته بما تدعي أنه سحرٌ أسود.. إنه لا يصدق هذا.. لا شك أنها قد أعطته مادة ما تسبب الهلاوس في النسكافيه؛ ولهذا يتخيل تلك الأشياء، إنها تحاول إصابته بالجنون أو دفعه إلى الانتحار وهو ما لن يحدث.

دلف إلى الحمام المضاء،كانت القطرات تتجه حيث يقف الحوض وتنتهي عنده.

وقف أمام الحوض وانحنى يتفحص القطرات، ثم وقف وحانت منه نظرة إلى مرآة الحمام....

***

ما هي أكثر ابتسامة مرعبة؟إنها ابتسامة شخصٍ شرير ينظر إليك، هناك شكل ابتسامة غريب يستعينون به عند تصميم لعبة مرعبة أو إخراج فيلم رعب.،يبتسم المسخ فتكشف الابتسامة عن أسنانه وجزءٍ واضح من اللثة وكأن الشفاه ممزقة.

كان (مروان) قد لمح انعكاسه في المرآة فخيل إليه أن هناك شيء ما في هذا الانعكاس ليست على مايرام، بجرأة نظر إلى انعكاسه.. هنا أدرك أنه كان محقًا.

إن انعكاسه ينظر إليه بنظرةٍ ساخرة مخيفة، ثم ابتسم كاشفًا عن أسنانه واللثة، وقد جحظت عيناه قليلًا.

راح صدر (مروان) يعلو ويهبط وثقل تنفسه، شعر بأن قلبه سيتوقف عن الخفقان من الرعب، يريد أن يركض خارج الحمام، ولكن قدمه ثقيلة لا تتحرك.

أبرز الانعكاس سكينًا، نفس السكين الصغير الذي يحمله (مروان) معه، ورفعه ببطأ تجاه عنقه.. اللعنة.. ترى إذا ذبح الانعكاس نفسه؛ هل يعني هذا أنه سيذبح (مروان) كذلك!؟

إلا أن الانعكاس لم يذبح نفسه، بل مرر السكين على عنقه من بعيد في رسالة تهديد، ثم اختفت ابتسامته المرعبة وامتدت يده لتعبر المرآة، وتحيط عنق (مروان) محاولة خنقه، بينما يده الأخرى تتجه إلى وجه (مروان) محاولة طعنه في أي مكان.
صرخ (مروان) بصوتٍ مبحوح وقد سقطت السكينة من يده، حاول أن يبعد اليد التي تحاول طعنه بينما يشعر بأنه سيختنق، سوف يلفظ أنفاسه الأخيرة قريبًا ما لم يتصرف، مد يده يبحث عن أي شيء ينقذ به نفسه، أحتقن وجهه وبدأ يشعر بأن أطرافه تضعف، جذب - أخيرًا- علبة شامبو الشعر الممتلئة، والتي كانت موضوعة لحسن الحظ قريبًا، وبكل قوته ضرب المرآة فظهر بها شرخ.. ضربة أخرى وثالثة فتحطمت واختفى الانعكاس، واختفت اليدين، وسقط (مروان) على أرض الحمام يلهث ويعب الهواء في صدره ويستجمع قواه، يلهث ويحاول لملمة أعصابه، لا يريد أن يفقد الوعي.

نهض أخيرًا، فغادر الحمام وعاد إلى حيث كان نائمًا، بالطبع قطرات الدم قد اختفت من الأرض، بالطبع لا أثر للخنق على عنقه، جلس منهارًا على الأرض بينما صوت القرآن في التلفاز، لن ينام حتى الصباح، هذا هو ما سيفعله.

***

في الصباح لم يدخل إلى الحمام، بل أرتدى ثيابه وغادر المنزل، وقال له (رضا) الذي كان يتناول شطيرة من الفول: يا بك.

تساءل (مروان) في عصبية: ماذا هناك؟!

-عثرت لك على امرأة يمكنها أن تأتي مرة أو اثنتين كل أسبوع لتنظف لك المنزل، ولكنها لن تبيت، أسمها (أم أيمن).

-ليكن، دعها تأتي وتحضر معها صورة البطاقة والفيش والتشبيه.

وغادر إلى حيث معمل التحاليل، فأكمل بقية التحاليل، واستلم بعض النتائج التي كانت سلبية كاالعادة، من الواضح أن صحته ممتازة وباستثناء بعض الأملاح الزائدة قليلًا، والتي يمكن علاجها بإكثار شرب الماء، لم يجد شيئًا غريبًا أو مادة ما.

اتصل باخيه وأعتذر له عن القدوم إلى العمل اليوم لأول مرة منذ سنوات عدة.. وتوجه إلى عنوان (هيفاء)، وطرق باب جارتها العجوز التي فتحت له الباب، ثم قالت: مرحبًا بك يا بني.

-مرحبًا، أعتذر عن قدومي المفاجيء، ولكنني كنت أتساءل إن كان لديك نسخة من مفاتيح الشقة الخاصة ب(هيفاء) فقد أخذت مني شيئًا ما وسافرت ولا ترد على اتصالاتي.

هزت المرأة رأسها، وقالت: كلا، ثم إن هناك أسرة سوف تسكن في الشقة بالفعل بعد يومين.

وأغلقت الباب، ظل واقفًا يفكر، ثم حسم أمره، توجه نحو الشقة وأخرج سلسلة مفاتيحه وراح يحاول فتح الباب بحذر دون

جدوى، لم يفلح أي مفتاح يمتلكه في فتح الباب، من ثم وجه ضربة قوية إلى الباب ففتحه عنوة ودلف إلى الشقة التي كانت خالية من أي أثاث.. راح يفتش في الشقة فلم يجد شيئًا، وإن شعر بأن أرضية الحجرة الداخلية الخشبية ليست مستوية.. طرق على الأرضية وكان واضحًا لأذنه إختلاف الصوت، توجه إلى الحمام حيث وجد عصا حديدية صغيرة وعاد إلى الحجرة الداخلية وبقوة راح يضرب الخشب غير عابيء بأن الجارة حتمًا سمعت صوته وأدركت أنه دلف إلى الشقة عنوة وحتمًا ستبلغ الشرطة الآن، أزاح اللوح الخشبي والذي كانت الأرضية أسفله مفرغة فلم يجد سوى صندوق صغير موضوع، فقط لاغير، لا يوجد ما يدل على أنها ساحرة كالأفلام.. لا يوجد كتب غريبة أو حيوانات محنطة.. لا يوجد خصلات لشعره ولا قميصه ولا صور ولا أي شيء.

بحذر فتح الصندوق الصغير فوجد به أغرب شيء، صورة لطفلة رضيعة حديثة الولادة جميلة، يبدو أنها ابنته، وصرصورٌ ميت، وريشة كبيرة سوداء شعر (مروان) أنها مأخوذة من غراب، ثمة شيء ما مقرف أقسم (مروان) أنه أحشاء حيوانٍ ما، ثمة فأر ميت كذلك، وخصلات شعره الداكن الناعم، لم يدري (مروان) ماذا يفعل بالضبط، فحمل الصندوق وغادر البناية وركب سيارته مغادرًا المنطقة.

***

في السادسة مساءً عاد (مروان) إلى منزله مصطحبًا معه مهندسًا شابًا، ولما دلف أشار إليه كي يجلس على الأريكة، وقال: ماذا تشرب؟

رد المهندس في تهذيب: شكرًا، لا أريد شيئًا.

-مستحيل، لا أريد أن أشرب وحدي، سأعد بعض الشاي، ريثما تبدأ عملك.

-ليكن، أين تريد مني تركيب الكاميرات؟

-ضع أثنتين على باب الشقة بزاوية تجعلني أرى كل ما يحدث في الطابق، وواحدة في الصالة هنا، وواحدة في حجرة النوم هذه، ها هو السلم، أخرجته إلى هنا كي تستخدمه، إن كان بالإمكان توصيلها بشاشة التلفاز.

كان يتمنى بشدة وضع واحدة أخرى في الحمام، ولكنه لم يجرؤ على طلب ذلك من المهندس حتى لا يعتبره منحرفًا أو مخبولًا، بل ربما يرفض العمل معه.

دلف إلى المطبخ يعد الشاي، وأضاف إليه النعناع والسكر، ثم عاد إلى الصالة، ووقف يراقب المهندس الذي انتهى من تثبيت إحدى الكاميرات على باب الشقة وراح يحاول تثبيت الأخرى.

تناول المهندس الشاي سريعًا مع (مروان)، ثم عاد يكمل عمله حتى أنتهى فنقضه (مروان) أجره، الآن بوسعه أن يتأكد من أن لا أحد يتسلل إلى منزله ليخيفه، كان يخدع نفسه وقد أدرك هذا ولكنه أراد إستبعاد جميع الاحتمالات مهما بلغت ضآلتها، من المستحيل نوعًا أن يتسلل شخصُ ما لداخل المرآة ويتحول إلى ملامحه ثم يمد يده محاولًا خنقه وطعنه.

أشعل التلفاز ورفع صوت القرآن من جديد، دلف إلى المطبخ ووقف يتطلع إلى الصندوق الصغير في حيرة، ماذا يفعل؟

فكر في حرقه بمحتوياته ولكن ماذا إن فرضنا أن شيئًا ما حدث خطأ وظهر كائن مخيف أمامه، أو الأسوأ، أحترق هو شخصيًا.

أقشعر جسده من الفكرة، وتطلع بحذر إلى الحمام، يريد استخدامه ولكنه أصبح يثير رعبه.

أحضر صفيحة قديمة كبيرة كانت لديه منذ فترة فتبول فيها مشمئزًا، ثم قاوم رغبته في التقيوء وهو يضعها في أحد الأركان، ويغطيها.

دلف إلى الحجرة الملحقة بالصالة حيث التلفاز وفتح حاسوبه المحمول وراح يبحث على الانترنت عن السحر، ظل على هذا الوضع حتى شارفت الساعة على العاشرة مساءً.. في النهاية أغلق الحاسوب وفرك عيونه المرهقة، أتصل بأحد المطاعم ليطلب طعامًا فهو لم يأكل، أدرك أن اغلب الموضوعات على النت هراء من أشخاص حمقى لا أكثر، حتى المواقع الأجنبية كان بعضها كذلك هراء، ولكنه كذلك أدرك أن السحر موجود وأنه مخيفٌ حقًا، وأن هناك من يتقنه وإن كانوا أقلية.

دلف إلى بعض المواقع الدينية فوجد المعلومات مقتضبة كتبت بحذر مع الحديث كثيرًا عن الرقية الشرعية والتي لا يعلم عنها شيئًا.

قرر إغلاق الحاسوب واسترخى على الأريكة شاردًا، ثم ارتفع صوت جرس الباب.

قام بتحويل القناة إلى حيث يستطيع رؤية ما تلتقطه الكاميرا فوجد عامل التوصيل واقفًا أمام الباب يحمل كيسًا بلاستيكيًا كبيرًا عليه شعار المطعم.

نهض ليفتح الباب، ثم تجمد وهو يرى المشنقة، المشنقة اللعينة معلقة في الصالة من جديد، حاول أن يسترخي وأن يستقبل عامل التوصيل على الأقل بوجه طبيعي، فتنفس بعمق، ثم فتح الباب وتناول الكيس من العامل، وقال: لحظات سأحضر المال.

وعاد إلى حجرته فاخرج المحفظة، وتناول منها المال وبعض الإكرامية وعاد إلى العامل فناوله المال، وقال باسمًا: احتفظ بالباقي.

-شكرًا يا سيدي.

-لحظة من فضلك.

تطلع إليه العامل، فقال: أريد أن أخذ رأيك في شيء ما، ما رأيك بهذه؟

وأشار إلى حيث علقت المشنقة وشعر بالإحباط وهو يرى نظرة العامل المتحيرة، والذي قال:تقصد السقف يا سيدي.

-أ.. أقصد تلك المعلقة بالسقف.

-أنا آسف، لا أرى شيئًا معلقًا.

وتطلع إليه بنظرة من يشك في قواه العقلية، ثم غادر.

***

على الشاشة لم يجد صورة المشنقة، الكاميرا لا تلتقطها، عاد إلى الصالة ونظر فوجدها قابعة وكأنما تنتظره بملل.

غادر المنزل وصاح مناديًا البواب الذي صعد إليه، فقال وهو ينقده بعض المال: أشتري بسرعة بعض السولار أو

الكيروسين، أمازلت واقفًا؟

أسرع (رضا) يشتري السولار من محطة بنزين قريبة وهو يشعر بالضيق، ثم عاد إلى (مروان) فوجده مازال واقفًا على باب الشقة ينتظر فتناول منه السولار في لهفة، ثم أغلق الباب دون كلمة.

توجه إلى المطبخ وقد حسم أمره.. أحضر الصندوق وسكب عليه السولار، ثم هم بإشعال النار ولكنه توقف، لم يدري السبب بالضبط، ولكنه شعر بهاجس خفي يدفعه إلى فحص الصندوق من الأسفل.

فعل هذا فارتفع حاجباه وهو يرى عبارة مكتوبة، كتبت بقلم سبورة أو صبغة، لا يدري بالضبط.. كانت العبارة هي "عثرت على الصندوق، ولكن هل تظن الأمر بهذه السهولة".

حدق في الصندوق مشدوهًا، ثم صرخ وهو يلقيه أرضًا بعنف: أيتها الحقيرة المجنونة.

ومد يده فأشعل الثقاب وأشعل الصندوق ووقف يتأمله في غل و أمل.

لم يسمع صرخة أو يتجسد أمامه وجه، لا شيء مما يحدث في الأفلام على الأطلاق.

إنتهى الأمر وقد امتلأ المطبخ بالدخان برغم عمل شفاط الهواء، فتح نافذة المطبخ الصغيرة على اتساعها وهو يسعل قليلًا، ثم غادر إلى الصالة.

أبتسم في انتصار، لم تعد هناك مشنقة معلقة، هل يعني هذا أنه نجح بشكلٍ ما؟

توجه بحذر إلى الحمام، مازالت بقايا المرآة المكسورة على الأرضية، نظر إلى ما تبقى من المرآة في حذر، لا شيء غريب أو مخيف.

أحضر المكنسة ونظف بقايا المرآة ثم تجرأ فغسل وجهه في حوض الحمام ثم تجرأ أكثر فتبول وهو ينظر حوله متوترًا، كل شيء بخير.

عاد إلى الصالة ففتح كيس الطعام وراح يأكل بشهية، لا بأس، كان هذا عقابًا شنيعًا قامت به (هيفاء)، تلك الأيام الماضية كانت كابوسًا ويبدو أنه انتهى، راح يبعد عن عقله التساؤل بشأن القميص، لا يريد أن يعلم.

غسل يديه ثم أخذ حمامًا منعشًا كان يحتاجه، وغسل أسنانه وارتدى منامة جديدة، عاد يشعل التلفاز على محطة القرآن، ثم دلف إلى حجرته لينام، كان النوم على الأريكة في الحجرة الملحقة متعبًا له وهو قد اشتاق إلى سريره الوثير، ثم إنه أدرك أن السحر إن كان مايزال يعمل فلن تشكل أي حجرة ينام فيها فارقًا كبيرًا.

أتته رسالة على الواتس، تطلع إليها فوجد (مها)، لم يدري لمَ لم يعد راغبًا في الرد عليها ولا على أي فتاة أخرى، تجاهل الرسالة واستلقى على السرير.

***

في اليوم التالي، استيقظ منتعشًا سعيدًا لأن شيئًا لم يحدث بالأمس، لقد نجح.

ارتدى ثيابه وتوجه إلى الشركة في نشاط وراح يعمل بهمة اثارت انتباه من حوله، وتناول الغداء في مطعمٍ قريبٍ،

وقال لأخيه وهو يغادر الشركة مبكرًا: أخبر ماما أنني سأتي لأبيت لديكم عدة أيام.

رد (خالد): رائع، أخيرًا سننتظرك، وسيشتاق إليك الأولاد.

وعندما دلف من باب العمارة السكنية، قال (رضا) في حماس: يا بك، لقد أحضرت لك (أم أيمن) ومعها الأوراق.

تطلع (مروان) إلى المرأة البدينة التي ترتدي العباءة السوداء المعتادة في الأماكن الشعبية، والتي قالت: أنا أعمل بنشاط يا بك، سأنظف لك البيت بالكامل.

تفحص أوراقها، ثم قال باسمًا: ممتاز، ولكنني متعب وأرغب في النوم، تعالي غدًا.

ردت في إصرار: لن تشعر بي يا بك، غدًا لدي عمل في بيتٍ آخر.

-حسنًا، ولكن حاولي أن تكوني سريعة.

في شقته ناولها دلو الماء وأوضح لها مكان وضع الصابون ومساحيق الغسيل في الحمام، ثم دلف إلى حجرته فغير ثيابه وعاد إلى الحجرة الملحقة بالصالة ففتح التلفاز وراح يتابع ما يعرض عليه بينما راحت المرأة تزيح طقم الصالة كي تنظف أسفله بعد أن خلعت العباءة وكانت ترتدي أسفلها جلبابًا.

بصفة عامة كان (مروان) ينظف بانتظام باستخدم المكنسة الكهربية، ولم يكن من النوع الذي ترى بيته في حالة فوضى لمجرد أنه بلا زوجة.

أتته رسالة جديدة على الواتس، (مها) من جديد، قرر أن يجيبها هذه المرة فكتب لها، طلبت الاتصال، فقال أنه متعبٌ حاليًا للغاية وسيتصل بها بمجرد أن يتحسن، لم ينسى أن يرسل لها رسالة مليئة بالكلمات الرقيقة الرومانسية، ثم ألقى الهاتف جانبه.

قالت (أم أيمن) وهي تقف على الباب: يا بك، هناك صندوق محترق في المطبخ.

رد: ألقه في القمامة، مكانه الطبيعي.

أومأت برأسها وعادت إلى المطبخ.

بعد أن انتهت توجهت إليه لتأخذ أجرها فناولها أياه، ثم قال متساءلًا: أخبريني يا (أم أيمن) هل تعرفين شخصًا أو شيخًا يقوم بفك السحر؟ لدي صديق يعاني من السحر منذ مدة.

قالت (أم أيمن): الكفرة أولاد الكفرة، بعض الناس تحب الأذى، طبعًا يا بك، أعرف واحدًا بارعًا لدينا في البلد في القليوبية، أسمه الشيخ (سيد).

-هل هو شيخ دارس للشريعة مثلًا؟

ردت المرأة في حيرة: ماذا تعني يا بك؟ إنه شيخ سره باتع وكل من يذهب إليه يشفى بأمر الله.

-أحضري لي عنوانه في المرة القادمة إذًا، أو أبلغيني برسالة على الهاتف.

-طبعًا يا بك.. أيضًا أنصح صديقك بأن يرتدي ثيابه بالمقلوب.

.....-

في المساء نهض (مروان)، فتناول عشاءً سريعًا، ثم أخلد إلى النوم وقد تدثر بالأغطية.. كان هذا حينما شعر بأن شيئًا ما يتحرك بخفة على قدمه.

***

الفصل الرابع

(عناكب وديدان ونصاب)

أول مرة رأى فيها (مروان) عنكبوتًا في الواقع كان عمره 7 سنوات، كان هذا العنكبوت صغيرًا قابعًا على حائط المرآب في فيلا والديه، يومها فزع من شكله المخيف وهرع يركض إلى داخل الفيلا مناديًا والده: بابا، بابا، هناك عنكبوت كبير.

تبعه والده وخلع حذائه وضرب العنكبوت فقتله، وقال باسمًا: (مروان) انت رجل.. عليك ألا تخاف من شيء، المرة القادمة أقتل العنكبوت بنفسك ولا تخف.

أومأ (مروان) برأسه في حماس، ولكنه في الواقع كان يخشى من تلك المخلوقات بشدة، حتى بعد أن وصل إلى سن الأربعين مازال مرآهم يثير فزعه خاصة إن كانوا من النوع الضخم المليء بالشعر.

شاهد ذات مرة وهو شاب مع رفاقه في منزل أحدهم فيلم رعب غربي يتحدث عن بلدة أحتلتها العناكب وراحت تأكل البشر، بطبيعة الحال لم يكمل الفيلم وظل يعاني من الكوابيس لعدة أيام، لم يكن خوفه منهم مرضيًا،لم يكن (أراكنوفوبيا)، ولكنه كان خوفًا كافيًا يجعله يبتعد فورًا إذا لمح أحدهم في حديقة ما.

صارح (هيام) ذات ليلة بخوفه منهم.. كان رائق المزاج ولم يمل منها بعد فراحا يتحدثان عن أكثر ما يخيفهما، طبعًا كانت (هيام) تخشى الفئران والصراصير كأغلب الإناث وقد فوجئت حقًا أن (مروان) الجريء يخاف من العناكب.

***

عندما أخلد (مروان) إلى النوم وشعر بشيءٍ ما يتحرك على قدمه بخفة، خفق قلبه في فزع، ترى هل فشل في التخلص من السحر؟ هل هذا شيءٌ آخر مفزع، والأهم ما هو؟ هل هو حشرة ما أم ثعبان صغير؟ تمالك أعصابه لأنه خشي أن يقوم بحركة مفاجئة فيتعرض للهجوم، وبخفة محاولًا عدم تحريك قدميه مد يده فأشعل ضوء المصباح بجوار السرير، ثم أشعل المصباح على الجانب الآخر من السرير بينما عيونه مسلطة على مكان قدميه أسفل البطانية، أزاح البطانية بهدوء ليجد ذلك العنكب يقف على قدمه اليسرى - قدم (مروان) - ويحدق فيه بعيونه الثمانية المرعبة، كان يحدق فيه بغل، وكأنما يعقل ما يفعل تمامًا، كان من النوع المسمى (آكل الطير)، ضخم الحجم، مرعب.

كان رد فعل (مروان) أن أطلق صيحة رعب وانتفض ليقذف هذا المخلوق بعيدًا، ثم نهض في ذعر فأسرع يشعل ضوء الحجرة قرب الباب و راح يتطلع حوله، الغرفة صامتة خالية.

قال لنفسه: مستحيل، هذا حلم، هذا كابوسٌ مريع.

ثم صرخ في غضب:أيتها المجنونة الحقيرة، أختك مجنونة وأنتِ مجنونة.

وأسرع يلتقط حذائه ويتأهب لقتل المخلوق الذي يثير فزعه، وهو يكمل: ماذا؟ هل أغتصبتها؟ هل دسست لها منومًا في العصير؟ هل كانت بحاجة للمال وساومتها؟ أختك فعلت كل شيء معي برضاها، هل تسمعين؟

وراح يفتش بعينيه في كل أركان الحجرة، أين يختبيء هذا الكائن؟ كان صراخه وصياحه قد جعله يخرج انفعالاته فهدأ قليلًا الآن، وتوجه نحو السرير ليفتش أسفله وهو يكمل: لن أخاف منك ولا من أوهامك، ليس بعد الآن.

نظر خلفه ليتأكد أن هذا الكائن لن يباغته من الخلف، لا شيء.. عاد يفتش تحت السرير.

من خلفه، جاء العنكب واقترب من جسد (مروان) المنحني، ثم أغرز أنيابه في كعب قدمه اليسرى ليعضه بوحشية عجيبة وكأنما يحاول نزع اللحم.

صرخ (مروان) من ألم العضة الممض، كانت العضة مؤلمة حقًا وسقط أرضًا وفرد قدمه اليسرى، وبكل قوته ضرب العنكب مرة واثنتين حتى قتله، وتأمل مكان العضة الذي التهب وتورم بشكلٍ مرعب.

قال في سخرية وتوتر: وبالطبع، سأستيقظ غدًا لأجد أنه لا أثر لأي شيء.

تمسك بالسرير كي ينهض وصرخ من الألم من جديد، ثم استلقى على السرير وتأمل قدمه، هل هو وهم حقًا؟ ماذا لو كان حقيقة؟ هل تعض العناكب؟ هل تقوم بتسميم الإنسان؟ لسوء الحظ لم تكن دراسته علمية كي يعرف تلك المعلومات، عليه أن ينهض ويتحامل على نفسه ويذهب لأي مستشفى على سبيل الأحتياط، فهناك احتمال أن...

هنا، وجد على باب الحجرة عنكبوت، ثم جاء المزيد، كان على باب الحجرة الآن عناكب تتوجه نحوه.. تراجع في ذعر وحانت منه التفاتة إلى السقف فوجد المزيد من العناكب تهبط إليه، هذا رعب حقيقي، إنه محاطٌ بمئات العناكب، ويبدو أنها جميعًا تهدف إلى.. إلى ماذا؟ التهامه كما في أفلام الرعب، جميعها من نفس النوع الذي قتله منذ قليل.

لا وقت للتعقل، حتى إن كان هذا وهمٌ فهو وهمٌ مسموع وملموس ومحسوس، سوف يقتله الفزع إن لم يقتله ألم العض قبلها، صرخ بجنون: النجدة.. الغوث.. انقذوني، سوف يقتلونني.

قفز أول عنكبوت نحوه فقذفه بيده بعيدًا فهجم آخر، تلقى عضة في ذراعه برغم أنه يرتدي ثيابًا شتوية ثقيلة، صرخ بأعلى صوته بينما العناكب تغطي معظم جسده وتعض هنا وهناك، اختلط صراخ الألم مع صراخ الرعب حتى بح صوته،

أغلق فمه وقد خطر له أن أحد العناكب قد يدخل إلى فمه، وماذا إن فقأو عينيه، عضٌ مؤلم في كل جزء، قلبه يخفق بعنف ويؤلمه، يبدو أنها نوبة قلبية بسبب الفزع أو الألم أو الاثنين معًا.

***

قالت الجارة في ضيق: هذا الرجل المخبول، لست أدري لماذا يسكن أمثاله في بناية محترمة وسط الأسر؟

رد زوجها وهو مستلقٍ بجوارها على السرير: إنه غالبًا مخمور، لهذا يصرخ بهذا الشكل.

هتفت الجارة: ألا يراعي حرمات الأخرين؟ ألا يدرك أن هناك جيران لديهم أشغال في الصباح وأبناء في المدارس، أول أمس راح يصرخ كذلك وكسر زجاجًا ما، ألا يكفيه النساء المشبوهات اللائي يأتي بهن مساءً.

قال الزوج: سمعت أنه خطب، وأنه سينتقل للسكن في مكانٍ آخر.

-فليذهب إلى الجحيم، ماذا بك؟!

-كنت أتساءل، ماذا لو كان في خطر فعلًا، ولهذا يصرخ طالبًا النجدة.

-خطر!! إنه مخمور كما قلت، فقط انتظر، وغدًا ستجده ذاهب إلى عمله وعلى ما يرام.

-ومع هذا، سأذهب سريعًا للاطمئنان عليه والحديث معه كي يخفض صوته، إنه على أية حال شخصٌ مهذب لم نسمع منه لفظًا سيئًا من قبل.

ونهض فارتدى الروب، وغادر الشقة متوجهًا إلى شقة (مروان) القابعة أمامه في نفس الطابق، وضرب جرس الباب عدة مرات، ثم غمغم في قلق: لقد كان يصرخ منذ قليل.

وبعد لحظة تردد قال لزوجته التي كانت تقف خلف باب الشقة: إنه لا يجيب، هل نتصل بالشرطة؟

ردت: دعك منه، إنه مخمور صدقني ولابد أنه قد فقد الوعي، هيا بنا.

عاد معها إلى الشقة وهم بإغلاق الباب حينما فوجيء بباب شقة (مروان) يفتح ووجد أمامه (مروان) بعينين جاحظتين مذعورتين ووجه شاحب أصابه بالرعب، فهتف: أستاذ (مروان) هل انت بخير؟

كان (مروان) يتنفس بصعوبة وقد بدا كأنه على وشك الإصابة بأزمة قلبية، فأسرع الجار نحوه، وقال: سأنقلك إلى مستشفى (....) القريبة، عزيزتي ناوليني مفاتيح السيارة.

***

قال (محمود) وهو يربت على كتف زوجته: أطمئني يا عزيزتي، قال الطبيب أن حالته مستقرة حاليًا.

هتفت (ميرفت): لن أطمئن حتى أراه بنفسي.

جاء الطبيب، فتساءل (خالد) بلهفة: كيف حال أخي يا دكتور؟

رد الطبيب: أطمئنوا، إنه بخير، لقد أصيب بنوبة قلبية بسبب التوتر الشديد، هل يعاني من مشاكل ما شخصية؟

غمغم (محمود): على الأطلاق، إنه رياضي ويأكل جيدًا وصحته على ما يرام وسيتزوج قريبًا.

مط الطبيب شفتيه، وقال: على أية حال، يمكنه مغادرة المستشفى غدًا، وأنصح إذا تكرر هذا الأمر أن تعرضوه على طبيب نفسي؛ فهو قد أصيب بنوبة هلع شديدة كادت تفتك به.

تبادل (محمود) نظرة حيرة مع زوجته وابنه، ثم قال: هل يمكننا رؤيته؟

رد الطبيب: أجل، ولكن لا تطيلوا عليه، إنه نائمٌ حاليًا.

وقال (خالد): سأذهب لأشكر جاره الذي نقله إلى المستشفى.

قال (محمود): سآتي معك، أريد أن أسأله عما حدث بالتفصيل، أذهبي أنتِ يا (ميرفت) إلى حجرته وابقي معه.

وتوجه (محمود) مع ابنه (خالد) إلى حيث الجار الذي كان يهم بالمغادرة، وقال (خالد): سيدي، أنا أخو (مروان) وهذا والده، كنا نريد أن نشكرك جزيل الشكر على انقاذك لأخي.

رد الجار في حرج: إنه الواجب.

تساءل (محمود) بلهجته الصارمة المعتادة:هل لديك فكرة عما حدث معه بالضبط؟

رد الجار: لقد كان يصرخ طالبًا المساعدة، ثم ذهبت إليه ووجدته يغادر الشقة وهو يتنفس بصعوبة فنقلته إلى هنا دون تردد.

عاد (خالد) يقول في تهذيب:جزاك الله خيرًا.

ولكن (محمود) تأمل الجار وهو يدرك بحكم خبرته أن الرجل يخفي شيئًا ما أو أن هناك ما يدور في عقله ولكنه لا يرغب في البوح به، فقال (محمود) باسمًا: لقد كبرت في السن ولم أعد قادرًا على متابعة ابني أو زيارته، لا أدري حقًا ما يحدث معه، إنه منتظم في العمل ولكن حياته الشخصية لا علم لي بها مع الأسف على الرغم من أنني والده.

وتطلع مباشرة إلى الجار مكملًا: إن كان هناك شيءٌ متعلقٌ به تريد قوله، أرجوك أعتبره مثل أخيك وأعتبرني مثل والدك وأخبرني به.

وكان قد خطر ل (محمود) خاطر مخيف أن ابنه يتعاطى شيئًا ما كاد يوقف قلبه بسبب الجرعة الزائدة.

قال الجار وقد صار أكثر جرأة: الواقع يا سيدي أن ابنك يثير استياء سكان البناية، إنه يعود أحيانًا مصطحبًا معه فتيات يبدو من ثيابهن أنهن.. أحم.. لسنا.. أحم، كما أنه يصرخ هكذا منذ أيام دون سببٍ واضح، كما أنه أتهم البواب بشيءٍ ما فقد كان (رضا) البواب مستاءً وأخبر المدام بأن (مروان) بك يتهمه باقتحام الشقة وتعليق المشانق أو.. لا أدري بالضبط.

.....-

***

فتح الجار باب البناية المغلق بمفتاح أخرجه من سلسلة المفاتيح ودلف يتبعه (محمود) و(خالد)، وصعدا إلى حيث شقة (مروان) وقاما بتحية الجار الذي دلف إلى شقته وأغلق الباب.

قال (محمود) وهو ينظر نحو الكاميرتين المعلقتين: ما هذا؟ لماذا يقوم اخوك بتركيب كاميرات للمراقبة؟

-لا أدري يا أبي.

فتح (خالد) الباب، ودلف إلى الشقة، نظيفة وهادئة، راح (محمود) يفتشها ركنًا ركنًا مع ولده.

قال (محمود) في ضيق وهو يجلس على الأريكة في الصالة: مرآة الحمام محطمة، وثمة فوضى في حجرة النوم وكأنه كان يتصارع مع أحد، ثم ما هذه الكاميرات التي يضعها في الصالة وحجرة النوم وفي الخارج، هل يتعرض للتهديد من أحدٍ ما؟

قال (خالد): لمَ لا نشاهد ما التقطته الكاميرا؟ ربما نجد تفسيرًا.

-هل تعرف كيف تشغل الفيديوهات؟ ممتاز، هيا بنا.

بالطبع اتسعت عينا الاثنين في ذهول وحيرة وهما يشاهدان ما يعرض.

كانا قد شاهدا الكاميرات الخارجية وكاميرا الصالة دون أن يجدا شيئًا ذا أهمية عدا أن (أم أيمن) كانت تنظف، بعدها شاهدا كاميرا حجرة النوم، وقال (خالد) معلقًا: لماذا يضع كاميرا للتصوير في حجرة النوم؟

رد (محمود) بصرامة: لا أعرف، ولكن إن اتضح لي أنه يصور نفسه مع هاته الفتيات اللائي يأتين معه فسأضربه حتى أحطم كل عظمة في جسده، بعد أن بلغ الأربعين بدأ يجن.

هنا شاهدا (مروان) يدلف إلى السرير ويغلق الأضواء ويستغرق في النوم، قام (خالد) بتقديم الفيديو حتى أوقفه لحظة أن أضاء (مروان) المصباح، وهنا بدأ الذهول، بالطبع لم تلتقط الكاميرا أية عناكب ومن ثمة بدا لهم أن (مروان) يصرخ في جنونٍ وألم ويتصارع مع نفسه، ثم بدأ يزحف مغادرًا الحجرة.

قال (محمود): (خالد)، ألم تعثر على أي شيء.. حشيش أو حبوب هلوسة أو مخدرات؟

رد (خالد) في وجوم وهو يغلق التلفاز: كلا، ولا أظن أنه سيتعاطى شيئًا في هذا السن، إنه ليس مراهقًا يا أبي.

-لا علاقة للسن بالتعاطي، صدقني، هيا بنا، أحضر بعض ثيابه، لن أدعه يبقى هنا ثانية لفترة.

نزلا إلى الطابق الأرضي وتوجه (محمود) إلى حجرة البواب فطرقها، وقال (خالد) محرجًا: الوقت متأخر.

تجاهله (محمود) حتى فتح (رضا) الباب وقد بدا غاضبًا ومتضايقًا، فقال (محمود): أرجو أن تعذرني لأيقاظي أياك من النوم ولكن الأمر هام، أنا والد (مروان)، لقد قابلتني من قبل عدة مرات منذ سنوات.. ألا تذكر؟

قال (رضا) وهو يتثاءب : آه، أجل يا بك.

نقده (محمود) ورقة من فئة المائة جنيه فتناولها (رضا) ووضعها في جيبه مغمغمًا: شكرًا يا بك، كل عام وأنت بخير.

دون مناسبة للتهنئة في الواقع.

قال (محمود): أخبرني ما فعله (مروان) وضايقك منذ أيام.

راح (رضا) يحاول التذكر، ثم قال: لقد كان يصر على أن هناك مشنقة في سقف الصالة وأنني أعمل مع أحدٍ ما وضعها له، ولكن يا بك لم يكن هناك شيء، لقد نظرت جيدًا ولم يكن هناك شيءٌ معلق.

-فهمت، هل هناك شيءٌ آخر.

-أجل، طلب مني أن أحضر له خادمة شابة لتبيت في المنزل فرفضت ثم أحضرت له (أم أيمن) لتنظف له، وطلب مني شراء السولار ولا أدري لماذا؟

بدا الغضب على وجه (محمود) وهو يردد: خادمة شابة تبيت لديه!!

-أجل يا بك، كان مصرًا على موضوع المبيت هذا.

أخرج (محمود) مائة جنيه أخرى ناوله أياها، وقال: أريدك أن تخبرني بأي شيءٍ غريب يحدث معه، وسأجزل لك العطاء.. والآن خذ رقم الهاتف كي تتصل بي إن حدث أمرٌ هام معه.

هتف (رضا) في حماس: بالطبع يا بك.

***

ربتت (ميرفت) في حنان على كتف (مروان) الجالس على مقعد وثير في الشرفة المطلة على حديقة الفيلا وجلست بجوار، بينما أخذ (محمود) يطالع الجريدة وقد قطب حاجبيه، وجلس (خالد) يشرب القهوة ويراجع بعض التقارير المتعلقة بالعمل على حاسوبه، وغمغم: أرتفع الدولار من جديد.

حانت التفاتة من (مروان) إلى شجرة ضخمة في الحديقة، فتأملها لثوان بشرود، نظر إليه والده بركن عينيه سريعًا ثم عاد يطالع الجريدة وقد قطب قليلًا.

أرتفع جرس هاتف (مروان) المحمول، فأسرع (محمود) يتناوله أمام نظرات (مروان) المستنكرة وتلقى المكالمة وهو يرد

على نظرات ابنه بنظرات صارمة لا مبالية، ثم ناوله الهاتف وهو يقول: معمل (....).

تناول (مروان) الهاتف وتحدث قليلًا ثم أنهى المكالمة وقال مفسرًا: كنت أقوم ببعض الفحوصات على سبيل الاطمئنان قبل الزواج.

غمغمت (ميرفت) في قلق: هل أنت بخير؟ هل أنت مريض يا بني؟

رد بسرعة: مطلقًا، أنا بصحة جيدة، لقد أخبرتكم أنني رأيت كابوسًا فظيعًا وهو ما سبب لي كل هذا التوتر والأزمة القلبية.

أشار (محمود) إلى (خالد)، وقال: أترك ما في يدك وأذهب لإحضار نتائج التحاليل من المعمل، أريد أن أطمئن على أخيك.

نهض (خالد) وقال: أجل، سأوصل الأولاد مع أمهم إلى النادي في طريقي.

عاد (محمود) ينظر إلى (مروان)، ثم قال: هل فكرت فيما أخبرتك أياه؟ الطبيب...

هتفت (ميرفت) معترضة: ابني ليس مريضًا، إنه بخير،قال إنه كابوس.

رد (محمود): ومع هذا، سأكون مرتاحًا إن ذهب إلى ذلك الطبيب النفسي الشهير، قم فقط ب3 جلسات، ثم قرر إن كنت ترغب بالاستمرار، أم...

قاطعه (مروان): أنا لا أعاني من أي مشاكل نفسية يا أبي وأنت تعرف هذا، أنا بخير، وسأكون بخيرٍ معكم لعدة أيام، من يدري، ربما أقرر العودة والبقاء في الفيلا حتى أتزوج.

-وشقتك التي تحبها؟

-سأبيعها.

-وهل هناك إنسان طبيعي يضع كاميرات ليراقب نفسه، أم لعلك كنت تنوي تصوير شيء ما (وأطلت من عينه نظرة ذات معنى).

قال (مروان): كانت تجربة أقوم بها وقد انتهت، سأقوم بالتخلص من الكاميرات حتمًا.

قالت (ميرفت): اليوم سأدعو (مها) ووالدتها على العشاء لدينا، سأعد اللحم البارد والكثير من الأصناف والفطائر.

غمغم (مروان) بلا حماس: ممتاز.

***

كان (مروان) قد غادر المشفى اليوم فتوجه مع أسرته إلى الفيلا تحت إصرار والده، ولم يكن الأخير بحاجة للإلحاح ف (مروان) فكر أنه سيكون أكثر أمانًا وسط أسرته في الفيلا ريثما يجد من يستطيع إبطال السحر، وهكذا تناول الغداء معهم وجلس قليلًا في الحديقة معهم، ثم صعد إلى حجرته القديمة التي مازالت على حالها ويتم تنظيفها بانتظام، وأمرت (ميرفت) إحدى الخدم بأن تقوم بتغيير الملاءات وتحضير بطاطين نظيفة، ثم قالت وهي تقبل وجنته: تصبح على خير، سأوقظك بعد ساعتين.

رد باسمًا: تصبحين على خير، أتركي الباب مفتوحًا من فضلك، أجل...

كان مرهقاً جدًا، في الأيام السابقة لم يأكل أو ينام بشكلٍ كافٍ، لم يذهب إلى النادي الرياضي كذلك، كانت عيناه منتفختان من فرط التوتر والسهر وقد نمت لحيته قليلًا لأنه لم يقم بالحلاقة منذ أيام وساهمت الأزمة القلبية في إكساء وجهه بالشحوب والمرض، أزمة قلبية وهو سليم تمامًا، إنتابه الخوف والغيظ معًا، هل سيموت قريبًا بسبب معاناته من هذا السحر الأسود اللعين؟ كيف يتزوج أو يعمل وهو بهذه الحالة؟

أغلق عينيه وسرعان ما أستغرق في النوم، ثم رأى كابوسًا أو حلمًا غريبًا، هذا هو وقت الكوابيس إذًا؟!!

إنه واقف في شارع عريض لوحده، لا أحد مطلقًا في الشارع، لا صوت طيور ولا حتى قطة عابرة، سار قليلًا في الشارع يبحث عن أي أحد، لا يسمع سوى صوت وقع قدميه على الأرض، هناك كلب ينبح من بعيد، شعر بالخوف وانقبض قلبه دون سبب وزاد انقباضه عندما بدأ الكلب يزوم وكأنه يستعد لمهاجمته.

استدار حول نفسه باحثًا عن أثرٍ للكلب فوجده واقفًا أمامه، كلب أسود شديد السواد بشكلٍ غير طبيعي.. في حياته (مروان) لم يرى كلبًا هكذا.. حتى الكلاب السوداء قد يكون طرف ذيلها أو حول عيونها أو في بطنها بعض الشعرات بلونٍ مختلف، إلا هذا الكلب، أسود تمامًا.. حتى عيونه سوداء، الغريب أن الكلب كان ينظر له بنظرة استمتاع غريبة لا يمكن أن تراها في عيون حيوان، فتح الكلب فمه لينبح ولكنه لم يصدر صوت نباح، كان الصوت صوت طفلٍ رضيعٍ يبكي، كلب يصدر صوت طفلٍ رضيعٍ يبكي بخفوتٍ وضعف. ظل (مروان) متسمرًا يحدق فيه، قدميه تزنان أطنانًا ويعجز عن الحركة.

شعر بيد تتحسس شعره وصوت يأتيه من خلف ظهره: (مروان) حبيبي، أنت مريض، دعني أعد لك بعض اليانسون.

هذا صوت (هيام) وإن كان الصوت مشوش وكأنه قادمٌ من بعيد، شعر بالفزع من أن ينظر إليها فيرى مسخًا.

فجأة وجد نفسه في منزله، (هيام) ترتدي قميص النوم الذهبي اللون الذي يفضله لأنه يتوائم مع لون عينيها بشكلٍ ما بينما هو جالسٌ إلى الأريكة.. تميل عليه.. صورتها غير واضحة وكأنما هناك غشاء ما على عينيه يمنعه من الرؤية بشكلٍ واضح، تقول باسمة بصوتها المليء بالحب: هذا يانسون، وضعت عليه عسل النحل، وأحضرت لك بعض الفيتامينات وخافض للحرارة يا حبيبي.

الكلب جالس في الصالة، لقد صحبهم إلى المنزل، أصدر صوت البكاء، اللعنة على هذا الكابوس.

بطنها منتفخ بشكلٍ كبير وكأنها على وشك الوضع، غريب هذا، لقد أنفصل عنها وهي في بداية الحمل.

هتف بها: (هيام)، ألم أطلب منك أجهاض الجنين؟ أيتها العنيدة، لن أتزوجك ولا أستطيع الاعتراف بالطفلة، لماذا تعذبينها بخطايانا، إنها طفلة بريئة.

تبتسم (هيام)، ابتسامة حزينة نوعًا، وتقول: لا تقلق، لن تسبب لك تلك الطفلة أي متاعب، سألقيها في القمامة، مكانها الطبيعي.. أليس كذلك؟!

قال (مروان): لا تفعلي أيتها المجنونة، خذي الأموال وغادري البلاد بالطفلة، أو لنمنحها لأسرةٍ تتبناها.

الكلب يصدر صوت البكاء، واااااا.. واا.. واا.. واا.....

فجأة، ظهر والده (محمود) بك شخصيًا ، بشاربه الكث وملامحه الصارمة،كان يجلس الآن على المقعد واضعًا ساقًا على ساق، أخرج سيجارة وأشعلها،غريب هذا، لقد أقلع والده عن التدخين منذ أصبح لديه أول حفيد، ثم متى جاء ودلف إلى الشقة وجلس؟

هتف (مروان): بابا، مهلًا، أنت لا تفهم.. أنا..

نفث والده دخان السيجارة، وقال بهدوء: لا بأس، لدي الحل.. سأجد لها من يتزوجها وينسب الطفلة إليه.

الكلب يصدر صوت بكاء واااااا.. واااااا.. وا.....

والده يتطلع إليه بنظرةٍ صارمة نارية، لم يتكلم، نظر إلى (هيام) المبتسمة بحزن والتي لم تعد بطنها منتفخة، نظر إلى الكلب الذي عاد يصدر صوت البكاء، نظر إلى والده البارد، الذي يحدق إليه ويقول: ها قد حللنا المشكلة.

ثم سالت دموعه بصمت، لا يدري السبب، في الواقع كان (مروان) نادرًا ما يبكي، إنه الآن في تلك اللحظة لا يشعر بالحزن أو الألم أو أي شيء، لا يشعر سوى بالخواء..

ثم أستيقظ، كان أخوه (خالد) يهزه برفق، وقد بدت نظرة قلق في عينيه. فتح (مروان) عينيه واعتدل في فراشه مغمغًا: هل مرت الساعتين؟

رد أخوه: أجل.

ثم ناوله منديلًا ورقيًا مضيفًا: هل ترى كابوسًا أو يحزنك شيء، كنت تبكي أثناء نومك وتئن.

غمغم (مروان): أنا بخير، لا تقلق.

-هل تناولت الدواء؟

-أجل، أخذه بانتظام.

-لقد أطلع والدك على نتائج التحاليل، أنت بخيرٍ والحمد لله، والآن عليك النهوض لأخذ حمام وحلاقة ذقنك، خطيبتك ستصل بعد ساعة، ووالدتنا تضغط على الخدم وتتابع المطبخ.

-سأفعل.

-بالمناسبة، لقد قررت أسرتنا العزيزة ألا تخبر (مها) أو أسرتها بأمر مرضك، سنقول أنك أرهقت من العمل وتستريح بعض الأيام.. طلب مني أبي أن أخبرك ألا تقع بلسانك.

نهض (مروان) فتوجه إلى الحمام وهو يجر أخيه من يده، ثم قال: هلا وقفت على الباب؟

-هل تمزح؟

-كلا، فقط حتى انتهي من حلاقة ذقني في المرآة.

ووقف أمام مرآة الحمام وغسل وجهه ثم بدأ يضع كريم الحلاقة وهو يتحاشى النظر إلى انعكاسه، لشد ما تغير في الأيام السابقة، عيونه منطفئة ومرهقة وملامحه شاحبة، مازال وسيمًا برغم ذلك. تناول ماكينة الحلاقة وتطلع إلى انعكاسه الذي تلاعبت في عينيه نظرة خبيثة مفاجئة، نظرة انعكاس يتظاهر أنه انعكاس وليس شيئًا خارقًا أو شيطانيًا.

أجفل (مروان) فتوجه إليه أخوه ونظر إلى المرآة في حيرة، ثم قال: أخي،هل تتعاطى شيئًا ما؟ لماذا تحدق في المرآة بهذا الشكل المريب؟!!

أطلت من عيني (مروان) نظرة تحدٍ، وقال: أبدو مريضًا، كنت أنظر إلى وجهي، لا شيء غريب؛ فلا تقلق.

وراح يحلق ذقنه متجاهلًا انعكاسه، ولكنه لم يأخذ حمامًا، واكتفى بغسل شعره في الحوض وتوجه إلى حجرته وارتدى ثيابًا نظيفة ومشط شعره ثم نزل إلى الأسفل.

***

قالت (مها): قلقت عليك كثيرًا.

أبتسم (مروان) في مجاملة، وردّ: لن أرهق نفسي في العمل ثانية.

أشار (محمود) إلى مائدة الطعام، وقال باسمًا: هيا لنتناول العشاء معًا، (مروان)، لقد أعدت لك (مها) حساءً خاصًا.

وقالت (مها) باسمة: أتمنى أن ينال أعجابك.

وقالت والدتها: إنها بارعة جدًا في عمله، إنه حساءٌ غريب بالزبادي والخضر.

جلس الجميع إلى المائدة، وبدأ الخدم يصبون الحساء الذي أحضرته (مها) معها بينما شرعت (ميرفت) في تقطيع الفطائر ووضعها في الأطباق المختلفة.

كان أغلب طعام (مروان) هو الطعام الجاهز من المطاعم لذا شعر بشيءٍ من السعادة وهو يتناول طعام المنزل وكان هذا الشعور ينتابه دومًا في الأيام التي يتناول الطعام فيها في الفيلا مع أسرته.

قال باسمًا للخادمة المسنة ولوالدته ولزوجة اخيه: سلمت أيديكن.

وقال ل (مها): سلمت يداك على الحساء.

مد المعلقة في الحساء استعدادًا لتناوله ثم توقف، كان هناك وزغ (برص) بالعامية، يقبع في طبق الحساء وقد بدا مستمتعًا، كان هذا أكثر مشهد مثير للأشمئزاز رأه (مروان) في حياته، شعر بالحمض يرتفع من معدته، إنه على وشك التقيؤ، وضع كف يده على فمه ونهض مسرعًا إلى الحمام بالطابق الأرضي أمام نظرات الحرج والذهول.

قالت (ميرفت) وقد أحمر وجهها قليلًا: إن معدته مضطربة للغاية.

ونهض (خالد) وقال: سأذهب للاطمئنان عليه.

وتبعه إلى الحمام حيث كان (مروان) يغسل وجهه الشاحب، وقبل أن ينطق أخيه قال: معدتي تؤلمني قليلًا ولكنني بخير.

تناول غسول الفم ومضمض فمه، ثم قال في عصبية لم يقصدها: هلا عدت إليهم؟

شعر بالندم لطريقته الجافة في الكلام مع اخيه، ثم عاد إلى المائدة وقال معتذرًا: أسف، معدتي تؤلمني حقًا.

غمغمت (مها): لا يهم، المهم أنك بخير الآن.

تأمل شريحة الفطير الكبيرة المحشوة بالخضر والطماطم والجبن الموضوعة في طبقه، الجميع يأكل الفطير اللذيذ، في حذر أمسك (مروان) الفطيرة وتشممها بشكلٍ جعل والدته تنظر إليه في ضيق، رائحتها شهية، قضم قضمة صغيرة، كان قد فقد شهيته بعد حادثة الوزغ ولكن شعوره بالتحدي وأنه لن ينهزم أمام سحر (هيفاء) دفعه للعناد وإرغام نفسه على تناول ولو

جزءً من طعام العشاء، بالطبع فقد ندم بشدة، كان الطعم حادًا ولزجًا ومقرفًا.. ألقى ما في فمه في الطبق وتطلع إلى حشوة الفطير، كانت الديدان تتلوى داخل الفطيرة، ديدان من كل شكل ونوع، رفيعة ومفلطحة، بيضاء وداكنة.

نهض كالملسوع من جديد وأسرع إلى الحمام وبعد أن أنهى التقيؤ صعد مباشرة إلى حجرته وأغلق الباب على نفسه.

***

على السرير استلقى وراح يحدق في السقف، سوف يموت، على هذا المعدل سوف يموت إما من الرعب أو قلة النوم أو الجوع، من حسن الحظ أن الأمر لم يصل إلى الماء بعد وإلا هلك عطشًا، المهم ألا يصل الأمر إلى الماء أو السوائل غدًا مثلًا أو بعد غد، أغلق عينيه وقال لنفسه: عليك إنقاذ نفسك، لم يعد هناك شك أن ما يحدث لك أمرٌ خارق، إنه سحرٌ فعلًا، عليك أن تحاربه بكل قوتك.

سمع طرقات خافته على الباب وصوت (مها) يغمغم في خفوت: جئت كي أودعك، فنحن سنغادر الآن.

لم يرد، ومضت دقيقة صمت وهي تقف أمام الباب ثم استدارت مبتعدة.

قرر ترك ضوء الحجرة وحاول أن ينام.

كان نومه في الأيام الأخيرة مضطربًا للغاية وجسده يتوق إلى النوم، كان هذا عذابًا مقيمًا، يريد أن ينام ويشعر بالرعب من أن ينام، نهض فنزل إلى المطبخ أمام أفراد أسرته الذين صمتوا بمجرد رؤيته، يبدو أنهم كانوا يتحدثون عنه، أخذ سكينًا ضخمًا ثم أخفاه خلف ظهره وصعد إلى حجرته فأغلق الباب دون مفتاح وتناول قرص الدواء، ثم أستغرق في النوم بسهولة، لقد فرض جسده رأيه على عقله.

بعد مضي ساعة شعر بالطبع بشيءٍ ما يزحف أسفل السرير، لم يكن هذه المرة زحف حشرة أو عنكبوت أو حيوان، كاد (مروان) يقسم أنه زحف إنسان أو طفل، تدثر بالأغطية بإحكام، لا يريد أن يرى هذا الرعب الجديد، ولكن ماذا لو مزق الأغطية؟ مد يده فجذب السكينة من أسفل الوسادة وأزاح البطانية، نهض ببطء محاولًا ألا يصدر صوتًا وأشهر السكين، لا يدري إن كانت تلك الأشياء التي لا يراها أحدٌ سواه والتي تبدو له واقعية للغاية تموت من الطعنات أم لا، ولكن انعكاسه أختفى عندما حطم المرآة وفشل في خنقه، ربما يختفي هذا الشيء إذا طعنه.

ظهرت من أسفل السرير كف يد، كف يد رجلٍ ناضج، رجل أسفل السرير، ثم ظهر الذراع والرأس ونصف الجسد.

قال (مروان) وهو يستعد للطعن: من أنت أيها الوغد؟!

استدار الرجل إليه، استدار بزاوية 180 درجة بلا مبالغة، كان الرجل هو (مروان).. أجل.. لو ان الأخير قد تعرض لحادثٍ شوهه وأحرق نصف وجهه، شهق (مروان).. أبتسم الرجل وهو ينظر إليه.. كان هذا... هذا...

صرخ (مروان): آاااااااااااااااااااه.

وتراجع حتى حافة السرير الأخرى.

***

قال (محمود) في غضب: ستذهب إلى الطبيب غدًا، أنت لست طبيعيًا.

كان (خالد) قد نزع منه السكين في رفق، وراحت والدته تبكي بحرقة دون انقطاع.

قال (مروان) في عصبية: مشكلتي ليست نفسيه.

رد (محمود): أنا لا أناقشك، أنا أمرك، أنت قد جننت حتى تصطحب معك سكينًا إلى السرير، هل كنت تحاول الانتحار؟!

وأشار إلى ابنه الأصغر، وقال: (خالد)، غدًا، أصطحبه بنفسك إلى الطبيب، وأبقَ في العيادة حتى تنتهي الجلسه، سأذهب بنفسي إلى الشركة فلا تقلق بشان العمل.

وهكذا جلس (مروان) في ضيق على المقعد أمام مكتب الطبيب يرمقه بلا مبالاة وغيظ، بدا أن الطبيب قد أعتاد هذا فراح يتحدث معه لساعة بينما (خالد) ينتظر في الخارج في قلق، في نهاية الجلسة غادر (مروان) المكتب، وقال الطبيب باسمًا: أستاذ (خالد)، هلا تفضلت معي قليلًا؟

نهض (خالد) وتبعه إلى داخل المكتب.

قال الطبيب: إنه يعاني من هلاوس سمعية وبصرية وربما الوسواس القهري، أشك في البارانويا، لقد كتبت له بعض الأدوية.. أيضًا أرغب في أن تقوموا بعمل أشعة على المخ، سأكتبها لكم كذلك، وبعض التحاليل.

قال (خالد) وهو يناول الطبيب ملفًا: تلك تحاليل قام بها (مروان)، إنها تحاليل كاملة تقريبًا.

تفحص الطبيب نتيجة التحاليل باهتمام، ثم قال في حيرة: أن النتائج تبدو على ما يرام، لمَ لا نجرب إعادة بعض التحاليل في معملٍ آخر؟

-ليكن.

تناول (خالد) الملف وروشتة الطبيب، ثم غادر المكتب فلم يجد أخيه.

قال للممرض الجالس: أين ذهب أخي؟

رد الممرض: لقد تحدث عبر هاتفه، ثم غادر.

هتف (خالد): غادر!!

ثم أسرع ينزل الدرج ويبحث عن أخيه في الشارع بعينيه دون جدوى، أتصل به فأجابه.

قال (خالد) في توتر:أخي، أين أنت؟

رد (مروان): لا تقلق، سوف أعود مساءً، لقد اتصلت بي (أم أيمن) وأبلغتني عنوان الشيخ (سيد) في القليوبية، وأنا ذاهبٌ لرؤيته.

ثم أغلق الهاتف تاركًا أخاه في حيرة.

***

شعر (أشرف) بشيء من التوتر، وهو يتحاشى نظرات (محمود) الصارمة، كان لهذا الأخير رهبة حقيقية في نفوس من يعرفه.

قال (أشرف): لقد كان هذا منذ عدة أيام، تحديدًا يوم الأحد، كان يبدو عليه أنه لم ينم جيدًا، أيضًا بعدها سألني إن كنت أرى آثار خنقٍ على عنقه، فسر لي الأمر بأنه يعاني من كوابيس لا أكثر.

وصمت (أشرف) وهو يتساءل إن كان عليه إبلاغ (محمود) عن (هيفاء) وأنها هي من دس لابنه شيئًا ما، ثم قرر أن يصمت فستكون كارثة لو عرف (محمود) عن (هيام) والزواج العرفي والحمل.

تساءل (محمود): هذا كل شيء؟

-أجل.

-أنت متأكد؟ ربما نسيت إخباري بشيء ما.

-كلا يا بك.

-أذهب إلى عملك إذًا.

***

ذلك الشيخ (سيد) كان لديه شقة صغيرة في حيٍ فقير في القليوبية، الشقة مكونة من حجرة وصالة وكانت الصالة ممتلئة لآخرها بالزبائن، حتى أن بعضهم وقف خارج الشقة، ثمة رجل مساعد يجلس على مقعد وأمامه منضدة ومفكرة يدون فيها أسماء الزبائن ويأخذ منهم أجر الكشف.

كانت ثياب (مروان) النظيفة والباهظة قد جذبت انتباه الزبائن، وهو يدلف إلى الشقة ويقف أمام المساعد قائلًا: أريد رؤية الشيخ (سيد).

رد الرجل: الكشف مائة جنيه.

-أنا في عجلة من أمري، هل لديكم كشف مستعجل؟

-ثلاثمائة جنيه.

دفع له (مروان) المال، فتلقفه المساعد في لهفة، وأحضر مقعدًا صغيرًا من مكان ما خصيصًا من أجله، وأشار إليه كي يجلس.

ارتفع صوت أذان العشاء في الخارج، وجلس (مروان) صامتًا وراح يستمع إلى حديث الناس.

إحدى النساء تشكو من تأخر سن زواج ابنتها وتصر على أن سلفتها (زوجة شقيق زوجها) قامت بعمل سفلي لابنتها.

وأخرى تشكو من ألم الظهر والركبة في أيامٍ معينة في الشهر، إنه سحر لعين حتمًا.

رجلٌ آخر يهمس للجالس بجواره عن مشكلته.

شعر (مروان) أن الرجل نصابٌ حتمًا وهم كثر، كان يفكر بعقله وكان متعلمًا وعلى قدرٍ عالٍ من الثقافة لهذا راح يحلل المشاكل التي سمعها، المرأة التي جاءت مع ابنتها، أبنتها لها ملامح لطيفة ولكنها ليست رائعة الجمال، ثم إن الأزمة

الأقتصادية في مصر رفعت متوسط سن الزواج بشكلٍ كبير، ليست ابنتها استثناءً، مثلها مثل الكثير من البنات والشباب.

الثانية في سن اليأس، إنه غالبًا إضطراب الهرمونات وليس سحرًا.

كان غارقًا في تفكيره، حينما فتح باب الغرفة وغادر الزبون بينما تسللت رائحة البخور، أشار إليه المساعد كي يدخل وسط همهمات إحتجاج الحضور فهم قد جاءوا قبله بساعات.

نهض ودخل الحجرة، ثم أغلق الباب، أشار إليه الشيخ (سيد) كي يجلس أمامه على الأرض حيث وضع وسادة ضخمة على غطائها نقوش عربية، كانت الحجرة بها إضاءة خافتة منومة و رائحة بخور قوية وجميلة في الواقع، أما (سيد) فقد كان رجلًا متوسط العمر يرتدي الجلباب ويمسك المسبحة بيده ولا يكف عن التمتمة وفي عينيه ذكاءٌ وخبث.

قال الشيخ (سيد) بصوت درامي: أنت رجلٌ جيد المظهر، هل أنت متزوج؟

-لا.

-إذًا أنت مربوط؟

قال (مروان) بضيق: لا أفهم ما تقوله، أنا مسحور، فتاة تكرهني قامت بعمل سحرٍ لي، وأريد أن أفك السحر قبل أن أجن أو أموت.

قال (سيد): إنها تحبك إذًا ولا تريد لك الزواج من غيرها.

-كلا، إنها تكرهني بجنون.

-قد يبدو لك هذا ولكنها تخفي حبًا.

-صدقني إنها تكرهني، أنا أرى أشياء، عضتني العناكب مثلًا بينما في الواقع لا يوجد عناكب، انعكاسي في المرآة حاول خنقي، في الواقع لم يحدث شيء، أنا اتوهم طوال الوقت، أيضًا لم أكل منذ الأمس لأن الطعام مليء بالديدان، أعرف أنه وهم ولكنني أشعر بالطعم في فمي وأشم الرائحة الكريهة في أنفي، أرى الكوابيس طوال الوقت.

أشار إليه (سيد)، وقال: ضع يدك على هذا الكتاب ولا تتحرك.

فعل (مروان) مثلما قال بينما أغلق (سيد) عينيه وراح يردد أشياء غريبة وهو يحرك رأسه ببطء، ثم فتح عينيه وقال بذعر: هذا سحرٌ قوي، هل حصلت الفتاة على شيء من أثرك؟

رد (مروان) بارتباك: قميص وشعرات، نسيت إخبارك أنني عثرت على صندوق به شعراتي وريشة غراب وأمعاء حيوان، وقد أحرقت الصندوق ولكن لم يتغير شيء.

-هذا لأن الجن الذي سخرته كي يعذبك لم يغادر، سنحتاج إلى عدة أشياء كي نطرده.

نهض (سيد) وأحضر ورقة ورسم بها شيئًا ما، ثم أحرقها ووضع بعض رمادها في كوب ماء، وقال آمرًا: أشرب القليل.

شرب (مروان) وهو يشفق على كليتيه، ناوله (سيد) حجابًا، وقال له: علق هذا الحجاب في صدرك، سوف يحميك من الجن، عندما تظهر لك أشياء ثانية أهتف فيها: فسختك بكلمة لا اله إلا الله، وهذا الحجاب.

غمغم (مروان): ما.. ماذا؟!

-فقط أفعل هذا وستشفى تمامًا خلال أسبوع، هذا الحجاب سيبعد عنك الأوهام، ستأكل وتشرب كما تريد، والآن أدفع مئتي جنيه ثمن الحجاب.

دفع (مروان) المال وغادر، سار في الشوارع متوجهًا نحو سيارات الأجرة العائدة إلى القاهرة، مر على مطعم للكشري وكانت الرائحة شهية، معدته تتلوى من الجوع، الحجاب في صدره وهذا ما يعني أنه بخير الآن ويمكنه أن يأكل كما قال له (سيد).. دلف إلى المطعم وجلس، طلب طبقًا كبيرًا بالإضافات ومياه غازية.

جاء النادل بالطعام فوضعه على المائدة، تأمل (مروان) الطبق في حذر، إنه نظيف وشهي.. قلب المحتويات وفتح علبة المياه الغازية.. ملأ الملعقة وفتح فمه كي يأكل، بالطبع توقف وأعاد الملعقة وتراجع مذعورًا مشمئزًا، أجل.. كانت الديدان تتلوى وكأنها تتحرق شوقًا كي يلتهمها.

قال وهو ينظر إلى الطعام: فسختك بكلمة لا اله إلا الله وهذا الحجاب.

بالطبع لم يتغير شيء.

عاد يردد بصوتٍ أرتفع برغمه: فسختك بكلمة لا اله إلا الله وهذا الحجاب.

تطلع إليه بعض الجالسين في سخرية وفضول.

حسنًا... أن (سيد) في النهاية نصاب محترف كما توقع (مروان) بالضبط.

***

الفصل الخامس

(أملٌ آخر)

توقفت الأمطار أخيرًا عن السقوط، واكتسى الجو ببرودة شديدة مع منتصف شهر يناير، في منطقة وسط البلد في القاهرة بدأت المحال تغلق أبوابها فالساعة الآن تقترب من العاشرة مساءً، في شارع شريف باشا جلست تلك المرأة الشابة رثة الثياب وقد قامت بوضع المناديل أمامها لتبيعها وحولها جلس ثلاثة أطفال أكبرهم لا يتعدى الرابعة وقد قامت بتغطيتهم ببطانية بإحكام، برغم الفقر البادي عليها يمكن لأي ملاحظ أن يرى أنها تحمل الكثير من الحب والعطف اتجاه صغارها، أما عن بقائها حتى هذ الوقت المتأخر فهو الأمل حتمًا في بيع بعض المناديل والحصول على مال كاف لشراء الطعام،لا أحد يعلم أين زوجها، ربما مات أو تخلى عنها.

المهم أنها لاحظت اقتراب (مروان) منها فتوترت، كان يسير ببطء ويترنح قليلًا لذا ظنت المرأة أنه مخمور أو يتعاطى شيئًا ما، وطبعًا لم يخطر ببالها أنه لا ينام تقريبًا، لايأكل تقريبًا، وأنه غدا على حافة الجنون، على كلٍ مازال هناك أناس في الشوارع ويمكنها دائمًا أن تصرخ إن حاول التحرش بها أو مضايقتها، توقف أمامها فلمحت عيونه العسلية الذابلة المحمرة المنتفخة وشعره الناعم الغير منظم وذقنه النامية، كان أنفه محمرً قليلًا، ربما من الطقس وربما لأنه مصاب بنزلة برد ما.

قال بصوتٍ متعب: أعطني منديل.

وأخرج من جيبه المال، ناولته علبة المنديل في حذر فنقدها عشرة جنيهات.

قالت في ارتباك وأمل وهي تعبث بكيس قماشي صغير: لحظة سأحضر لك الباقي.

ولكنه كان قد أنصرف مبتعدًا، لم تصدق المرأة نفسها ولكنها وضعت المال في الكيس بعد أن قبلته وشكرت الله ثم قالت تدعو له: بارك الله لك، وشفاك.

لأنها شعرت أنه مريض أو ليس على مايرام.

أما (مروان) فقد سار قليلًا، ثم توقف أمام سيارته فركبها وتمخط في أحد المناديل من العلبة ثم ألقاه وأغلق النافذة وحاول أن ينام في المقعد الخلفي للسيارة.

مر شهر، حاول خلاله كل شيء، جرب العديد ممن يزعمون قدرتهم على علاج السحر دون جدوى، مجموعة من النصابين لا أكثر، لا حجاب.. ولا تميمة تجدي، جرب الزار وذبح الديكة، جرب شراء أشياء غريبة من العطارين، وجربت (أم أيمن) - في حماس - تنظيف الشقة بالماء والملح وعرق الحلاوة، لا جدوى، كانت النتيجة أنه أصبح لا ينام ولا يأكل وهزل جسده وضعف وأصبح عصبيًا متوترًا أقرب إلى الجنون، وكان يبقى في الفيلا أحيانًا أو يعود إلى شقته أحيانًا، لم يكن انتقاله يجدي فقد فكر في السفر إلى شاليه تملكه الأسرة في مارينا، ولم يتغير شيء، ولو أنه كان يرتدي ثيابًا قصيرة الأكمام الآن لكان بوسع أي شخصٍ يراه أن يلمح علامات الإبر نتيجة أخذه للمحاليل من وقتٍ لآخر حتى لا يموت جوعًا.

فحوصات وأشعة المخ كانت بلا جدوى، أدوية الطبيب النفسي كانت بلا جدوى، إنه سحر لعين لا فكاك منه كما يبدو.

أما لماذا يجلس (مروان) في سيارته الآن بهذا الشكل فالسبب أنه هرب من المشفى اليوم لأن والده أراد وضعه في مصحة لعلاج الإدمان وكان مصرًا ولأن الجميع غاضبٌ منه لأنه أنهى خطبته من (مها) للتو.

***

كان ماحصل معه بالأمس هو القشة التي قصمت ظهر البعير كما يقال.

كان يسير مساءً في شوارع مصر الجديدة زائغ البصر عاجزًا عن التفكير فالصداع سيفجر رأسه وقلة النوم ستميته، وقف على ناصية الشارع فاستند على شجرة، ثم جلس أرضًا أسفلها، وقف أمامه شاب له ملامح غير مريحة، وقال: معي دواء قد يريحك إن كان معك ثمنه.

ابتسم (مروان) ابتسامة شاحبة، وأخرج من جيبه محفظة النقود فأخرج منها المال ومنحه للشاب، أخرج الشاب كيسًا بلاستيكيًا صغيرًا به ثلاث حبوب وقال: بالشفاء.

وتلفت حوله، ثم غادر أو بمعنى أصح أختفى.

تأمل الحبوب شاردًا ثم تناول أول واحدة وأبتلعها، لا يدري هل هي حبوب هلوسة أو مخدرة، تناول الثانية والثالثة ثم استلقى على الأرض الباردة المبللة قليلًا وتطلع إلى السماء، ثم غفلت عيناه.

كان الآن يركض محاولًا الهرب من مسخ يتبعه بينما قلبه يخفق في رعب شديد، كانت حياته في الآونة الأخيرة سلسلة كوابيس لا تنتهي إما وهو نائم أو وهو مستيقظ، سوف يفيق من الكابوس بعد قليل ليكتشف أنه نام لنصف ساعة أو ساعة على الأكثر، هذا هو ما يظفر به من نوم في اليوم الواحد.

سقط في وحلٍ عميق وحاول أن يخرج دون جدوى، الوحل لزج ويشده إلى أسفل شدًا، طمر وجهه داخل الوحل ولم يعد يرى إذا أظلم كل شيء أمامه، لا يستطيع التنفس.. سوف يختنق.. سوف يختنق.. النجدةةةةةة.

شهق (مروان) وهو يفتح عينيه مذعورًا ليجد نفسه مستلقيًا على سرير وحوله الأطباء والممرضين يحاولون إسعافه.. كان الطبيب قد قام للتو باستخدام جهاز الصدمات لإعادة إنعاش قلبه.

قال الطبيب: نجحنا.

ثم تطلع إليه، وقال: أقلقتنا عليك يا أستاذ (مروان)، هذا اسمك أليس كذلك؟!

قال (مروان) في ضعف: ماذا حدث؟

رد الطبيب في لوم عطوف: جرعة زائدة كادت تقتلك، وجدك شخصٌ مار بالسيارة وقد جذب انتباهه أنك لا تبدو مشردًا فاتصل بالإسعاف، كانت معك أوراقك وقد أتصلت المستشفى بأسرتك.

وربت على كتفه مردفًا: الآن استرح قليلًا.

بالطبع بعد دقائق وصل والده ووالدته وأخوه، كان والده غاضبًا جدًا وراح يصرخ فيه متجاهلًا أنه في مستشفى: أنت قد جننت، لا يكفي أنك لم تعد تعمل ولا تأكل ولا تمارس رياضة ولا تتحدث مع خطيبتك،الآن ظهرت الحقيقة.. كنت أعلم أنك تتعاطى شيئًا ما، لا أدري كيف أخفيت الأمر في التحاليل ولكنك الآن متلبس بالجرم المشهود.

حاول (مروان) قول شيء، ولكن والده أكمل بغضب: لا أريد أن أسمع صوتك، سوف أضعك في مصحة للعلاج.

قال (مروان): انا لست مدمنًا، قلت لك لست مدمنًا، ومشكلتي ليست نفسية.

هذه المرة تكلم (خالد) وقال بلهجة حادة نادرًا ما يتكلم بها: لمَ لا تخبرنا بمشكلتك إذًا؟!

زفر (مروان) وظل صامتًا، فقالت (ميرفت) بخفوت: يجب أن تدخل المصحة.

رد (مروان): أنا مسحو.. لا تتطلعوا إلي هكذا، أنا مسحور.. أقول لكم الحقيقة.

هتف (محمود) وهو ينظر إلى ابنه البكر في ذهول: أنت مجنون، كنت عاقلاً دومًا، والآن تلك الأشياء التي تتعاطاها أصابتك بالجنون.

وغادر الحجرة وهو يضرب كفًا بكف وراح يتصل بالمصحة.

قال (خالد): هذه المرة لا أستطيع الدفاع عنك.

غمغم (مروان): لهذا لم اخبر أحدًا منكم، لأنكم لن تصدقونني.

مضت دقيقة من الصمت، ثم عاد (محمود) إلى الحجرة وقال: تبًا، (عصام) بك والد (مها) هنا، كيف عرف!! ياللفضائح، ماذا سأقول له؟

ونظر نحو (مروان) بنظرة نارية غاضبة.

دلف (عصام) إلى الحجرة وقال: إذًا ما سمعته صحيح، هل حقًا (مروان) كاد يموت؟

قال (مروان) بسرعة قبل أن يتكلم أي أحدٍ آخر: أجل، كدت أموت بسبب جرعة مخدر زائدة، سيدي أنا أريد أن أنهي الخطبة فأنا لا أصلح لابنتك أو لأي فتاة سواها، الشبكة من حقها وكذلك جميع الهدايا، والآن فلتأذنوا لي فسأذهب إلى الحمام.

هتف (محمود): (خالد)، إذهب معه.

رد (مروان) بعصبية: لن يصحبني أحد؛ فأنا لست طفلًا.

ثم غادر الحجرة وغادر المشفى متوجهًا إلى شقته، وهناك ركب السيارة وغادر هاربًا.

***

بعدها، اشترى علبة المناديل وحاول النوم في السيارة كما أوضحنا من قبل، سيحاول أن يظفر بساعة أو نصف ساعة وهذا كل ما يستطيعه قبل أن يستيقظ مذعورًا بسبب الكوابيس أو بسبب صوت شيئ ما يتحرك حوله، شيئ لا يراه أو يسمعه سواه، أغلق عينيه وكان يدرك أن التعب الشديد الذي يعانيه سيجعله ينام سريعًا، وكان الرعب الذي يراه في الكوابيس يدفعه إلى تأجيل لحظات النوم البسيطة هذه قدر المستطاع.

أتاه اتصال من (أشرف) فتأمل الهاتف في لا مبالاة، ثم أغلقه وألقاه على أرض السيارة، سوف ينام الآن.

لم يعلم أن والده قد ذهب إلى (أشرف) فطرق الباب في حدة، كان يبحث عنه ولم يجده في شقته فذهب إلى (أشرف) بنفسه وأمر (خالد) بالبحث عنه في الفنادق التي يلجأ إليها (مروان) أحيانًا، كما قلنا طرق الباب في حدة فتساءل (أشرف): من؟

رد (محمود) بلهجة صارمة اعتاد عليها: إنه أنا، أفتح الباب.

فتح (أشرف) الباب، وتطلع إلى صاحب العمل في رهبة. دلف (محمود) إلى الشقة دون دعوة، وقال: هل جاء (مروان) إليك؟

رد (أشرف) في حيرة: كلا، إنه كذلك لا يرد على اتصالاتي منذ أيام.

هتف (محمود) في حدة: هل لديك فكرة أين هو الآن؟

-كلا يا (محمود) بك.

-أتصل به إذًا،الآن.. وحاول أن تعرف أين هو.

نفذ (أشرف) ما طلبه منه (محمود)، ولكن (مروان) تجاهل المكالمة ثم أغلق الهاتف، فغمغم (أشرف): لقد أغلق هاتفه.

أطلق (محمود) سبة، ثم قال بضيق: إذا أتصل بك فأبلغني فورًا، أنا غاضبٌ بشدة وأنصحك ألا تحاول خداعي والوقوف بجانبه هذه المرة، هل تفهم؟

-ولكن ما الذي فعله (مروان)..

-هذا شأن عائلي، فقط أفعل كما أمرتك.

-أجل.

غادر (محمود) المنزل، فأغلق (أشرف) الباب ثم جلس في الصالة وزفر في ضيق، كان مضغوطًا بشدة، زوجته تشاجرت معه بعد أن أمسكت به متلبسًا بصحبة فتاة ما في مطعم، أخذت الطفل والذهب والمال كله وغادرت إلى منزل والدها، أعلن والدها له في الهاتف أنه سيأتي غدًا لحمل جميع الأثاث، سترفع قضية طلاق وقضية نفقة، معها صور وفيديو مسجل له وهو يحتضن كف الفتاة ويحدثها برومانسية وحب، لقد حدثه (مروان) من قبل أن عليه أن يستقيم في حياته بعد أن أصبح زوجًا وأبًا، ولكن تلك كانت طبيعته خاصة عندما يجد فتاة جميلة، كان يحاول التحدث مع (مروان) ليطلب منه النصح أو المساعدة ولكن بلا جدوى، ف (مروان) لا يجيب على مكالماته وهو كذلك لايأتي للعمل منذ فترة.

قال (أشرف) في حيرة: تبًا، هل تلك الفتاة (هيفاء) تقوم بابتزازه مثلًا؟ لهذا لم نعد نراه وكان يبدو في الآونة الأخيرة مريضًا ومرهقًا!؟

أسرع (أشرف) بمغادرة المنزل وركض هابطًا الدرج ومحاولًا اللحاق ب (محمود) وقد تمكن من ذلك في الطابق الأرضي فقال: (محمود) بك، ثمة شيء هام يجب أن أخبرك اياه.

تطلع إليه (محمود) باهتمام ولهفة، فقال: أظن يا بك إن (مروان) يتعرض للابتزاز على يد فتاة تدعى (هيفاء).

تطلع إليه (محمود) لثوانٍ، ثم قال: غير صحيح.

-عفوًا.

- أتصل بي المحامي منذ فترة وأخبرني أن (مروان) طلب منه التأكد من مغادرة فتاة لمصر تدعى (هيفاء) إلى إسبانيا.. بالطبع تحريت عنها وأدركت أنها شقيقة فتاة كانت تعمل في الشركة وتدعى (هيام)، تلك التي أنتحرت، خمنت أن الفتاة كانت تحب ابني وعندما خطب انتحرت.

شعر (أشرف) بالخوف في الواقع، ليس فقط لأن (محمود) كان يعلم تقريبًا أغلب الحكاية ولكن لأنه لا يبالي، لا بأس أن تنتحر فتاة بسبب ابنه، المهم أن يكون ابنه بخير.

غمغم (أشرف): كنت.. أحسب...

قاطعه (محمود): أنه لا يتعرض للإبتزاز، أنا قد تأكدت من هذه النقطة، فقط إذا اتصل بك أو عرفت أين هو فلا تتردد في إخباري وسأحرص على مكافأتك بسخاء.

-أ.. أجل.

-إلى اللقاء الآن.

-.....

***

أذان الفجر، كان (مروان) مستيقظًا في السيارة حينما تراءى إلى مسامعه صوت الآذان، متى كانت أخر مرة صلى فيها، منذ سنوات طويلة.

قال لنفسه: لم لا أصلي الفجر؟ حقًا.. لم لا أفعل ذلك، ألن يحميني هذا من السحر؟ ربما أتمكن من النوم دون كوابيس في المسجد.

نهض مترنحًا وتوجه إلى حيث المسجد الصغير، خلع حذائه ووضعه في صندوق الأحذية ودلف إلى الداخل، كان عدد المصلين قليل، دلف إلى الحمام أولًا ثم عاد بعد أن توضأ.. المشكلة أنه غير واثقٍ إن كان وضوؤه صحيحًا أم خطأ، كان هناك لحسن الحظ ملصق معلق قرب الأحواض فيه صور لطريقة الوضوء وقد راح (مروان) يتفحصه ويحاول تقليده كطفل صغير يتعلم الصلاة لأول مرة، وقف في الصف، على الأقل كان يعلم أن صلاة الفجر ركعتين، بعد الصلاة تراجع إلى أحد الأركان واستلقى، سوف ينام قليلًا، فقط قليلًا.

كان قد رأى كابوسًا محترمًا أثناء نومه في السيارة حيث كان مقيدًا إلى مائدة بينما حوله بشر مشوهة الخلقة يقطعونه ويلتهمون أجزاءً منه، كان يشعر بألم التقطيع والنشر، طعنات السكين والمشارط والمناشير، والمفترسون يبتسمون في سعادة وهم يحدقون فيه، دعك من الرعب وخفقان قلبه بشكلٍ مخيف يؤكد أنه على وشك التوقف ما لم يستيقظ.

لم يدري كم مضى من الوقت، غالبًا عشر دقائق،غرق في نوم بلا أحلام لعشر دقائق حينما شعر بمن يهزه برفق، فتح عينين منتفختين متوسلتين ليرى إمام المسجد يتأمله بحذر وشفقة، لا شك أن مظهره يعطي الإنطباع ب "عزيز قومًا ذل".

قال الإمام: علينا إغلاق المسجد كما تعلم.

غمغم (مروان): ألا يمكنك إغلاقه وإبقائي هنا، لن أصدر صوتًا.

-لايمكنني للأسف، ابني.. هل تحتاج إلى المال؟

ومد الإمام يده في جيبه، فأسرع (مروان) يقول: معي مال، لست بحاجة سوى للنوم، لا أستطيع النوم في أي مكانٍ بسلام سوى هنا، أنظر إلي.. أنا لا أنام تقريبًا، فقط اليوم.

تراجع الإمام قليلًا، وقال بحذر: هل تعاني من الأرق؟ من مرضٍ ما؟

حتى الأمام يحسبه يتعاطى شيئًا ما.

-أعاني من السحر، السحر الأسود، هيا.. أطلب مستشفى المجانين، ألن تفعل؟

تطلع إليه الإمام، ثم قال: سحر!!

-أجل، هناك من قام بعمل سحر لي، أصبحت لا أنام ولا آكل، لم أعد قادرًا على الأستمرار في الحياة حتى..

شعر (مروان) بالدهشة، حينما قال الإمام: هل أنت متأكد؟ هل استبعدت الأسباب الصحية؟

-م.. ماذا؟.

-أقول، هل أستبعدت..

-هل تصدقني، هل تصدق ما أقول؟

رد الإمام: أجل يابني، السحر موجود ومذكور في القرآن الكريم، أليس كذلك؟ المهم أن تكون قد استبعدت...

قاطعه (مروان) بلهفةٍ من جديد: بالطبع، قمت بعمل جميع التحاليل وأشعة على المخ ورؤية طبيب نفسي وتعاطي أدوية نفسية.. أنا سليم تمامًا والتفسير الوحيد لحالتي هو السحر، هل تصدقني؟

-إن كان الأمر كما تقول فربما تكون صادقًا.

مضت لحظات من الصمت، ثم قال (مروان) متوسلًا: هل يمكنك أن تنصحني أو تساعدني؟

رد الإمام: مع الأسف كلا، كان لدي صديق يجيد علاج السحر وكان رحمه الله رجل لديه علم ودين ويعلم ما يفعل حقًا.. ولكنه توفي منذ خمس سنوات.

شعر (مروان) باليأس يغمره، كان هناك شخصٌ ليس نصابًا يمكنه مساعدته، ولكنه توفي.

تمتم (مروان) في ضعف: رحمه الله.

عاد الإمام يقول: ولكن ابنائه الكبار قد ورثوا مهنته، إنهم ليسوا في القاهرة مع الاسف.

انتفض (مروان) وجذب الإمام من يده في لهفة، ونهض قائلًا: أين هم؟ أين عنوانهم؟

رد الإمام بسرعة: في (بنها)، سأعطيك العنوان بالتفصيل، أتمنى ان يساعدوك.

حصل منه (مروان) على العنوان وشكره في حرارة، سيجرب للمرة الأخيرة وإذا لم يفلح الأمر هذه المرة فسوف يستسلم.

بينما يغادر المسجد مسرعًا، قال له الإمام: ابني، واظب على الصلاة فستحفظك وتحميك من شرور السحر.

قال (مروان): سأحاول.

***

وصل (مروان) إلى بنها وتوجه إلى العنوان، كان العنوان لبيتٍ بسيط مكون من طابقين ومحاط بسور وبوابة حديدية خارجية مزخرفة، كانت الشمس قد أشرقت وبدا اليوم صحوٌ على غير الأمس حيث كانت تتساقط الأمطار، طرق (مروان)

على زر الجرس بجانب البوابة الخارجية مرة ثم أخرى، جاءت طفلة في العاشرة إلى الباب وتطلعت إليه، قال في حيرة: مرحبًا، هذا منزل الشيخ (محمد عبد الرحيم) رحمه الله؟

أومأت الطفلة برأسها فعاد يقول: أنا هنا لرؤية ابنائه.

لم يدري ما التعبير الذي يجب عليه استخدامه، ولكن الطفلة قالت: تحتاج إلى علاجٍ من السحر؟

رد بسرعة: أجل في الواقع.

غابت الطفلة داخل البيت لدقيقة، ثم عادت مسرعة وهي تحمل ورقتين ناولته اياهما وقالت: املأ الاستمارة.

نظر إليها بذهول، فعادت تقول: بعد أن تقرأها أختي سوف تتصل بك لتحديد موعد.

غمغم (مروان) متلطفًا: ولكنني لست من البلدة، لقد جئت من القاهرة، ألا يمكنني رؤية أختك الآن؟

هزت الطفلة رأسها نفيًا، وقالت: لن تقبل برؤيتك أو تحديد موعد معك ألا بعد أن تطلع على الاستمارة، من فضلك املأها وسآخذها منك بعد أن تنتهي، هل تريد قلمًا؟

-أجل من فضلك.

أحضرت له القلم فتناوله شاكرًا، وعاد يجلس داخل السيارة وتأمل الاستمارة، كان هذا الموقف غريبًا فريدًا من نوعه، لم يلق من قبل أو يسمع عن معالج سحر يطلب ملأ استمارة بيانات.

أمسك القلم واستعد وبدأ يقرأ الأسئلة؛ الاسم ثلاثي، السن، المهنة، مهنة الوالدين، عدد الأخوة والأخوات، الحالة الاجتماعية، الأمراض الوراثية إن وجدت "مثال: السكري، الهيموفيليا"، وماهي الأدوية العلاجية؟

غمغم (مروان) وهو يكتب الإجابات: ماهي الهيموفيليا هذه؟!!

عاد يكمل ملأ الاستمارة وهو يتابع القراءة هل هناك أمراض نفسية أو عقلية لديك أو لدى أقارب الدرجة الأولى أو الثانية؟ متى ظهرت عليك أعراض السحر؟ هل لديك فكرة عن الشخص الذي قام بعمل السحر بنفسه والشخص الذي طلب منه ذلك؟ هل ترى كوابيس أثناء النوم؟ إن كانت الاجابة نعم فاكتب تفاصيل أول كابوس رأيته وآخر كابوس؟

منذ أصبت بالسحر هل تنسى وتفقد التركيز طوال الوقت أم أحيانًا ؟هل ترى أشياء لا يراها الأخرون؟ أكتب تفاصيل ما تراه في حالة الإجابة بنعم.

هل تصلي بانتظام أم بشكلٍ متقطع أم لا تصلي؟ هل تقرأ وردًا من القرآن يوميًا؟ في النهاية، ضع رقم هاتفك لسهولة التواصل.

عاد (مروان) إلى البوابة، فناول الطفلة الاستمارة بعد أن ملأها، وقالت وهي تتناولها: هناك فندق نظيف وسعره جيد في نهاية الشارع، يمكنك المبيت فيه إن أحببت.

ثم عادت إلى الداخل، زفر (مروان) في غيظ، هل عليه أن ينتظر يومًا آخر! ثم ما كل هذا الهراء؟!

توجه إلى الفندق وابتاع شطيرة وهو ذاهب فهو جائع للغاية، قام بحجز حجرة وكان سعرها لا بأس به، وكانت الحجرة

نظيفة كذلك، جلس يأكل الشطيرة وهو يغمض عيناه ويضغط على أسنانه بقوة ويجبر نفسه على البلع،أصوات تمزق الديدان وطعم اللحم الفاسد يثير جنونه، ولكنه راح يردد لنفسه: هذا وهم، وهم، الشاورمة طازجة ولذيذة وأنت بحاجة لأن تأكل.

بعدها شرب علبة مياه غازية محاولًا منع نفسه من التقيؤ، صبرًا، غدًا سوف يجد علاجًا أو يموت.

***

أتاه الاتصال قبل صلاة العشاء، كان قد قام بفتح هاتفه حتى يتلقى المكالمة وقد جاءه صوت فتاة هاديء، يقول: أستاذ (مروان محمود)؟

رد: أجل، أنتِ ابنة الشيخ (محمد عبد الرحيم)؟

-هذا صحيح، تعالى إلى البيت غدًا بعد صلاة الظهر، هل يناسبك الموعد؟

-أجل، بالطبع.

-ممتاز، من فضلك أنهض الآن وتوضأ ثم أذهب لصلاة العشاء في المسجد، كذلك غدًا، أريدك أن تصلي الظهر قبل أن تأتي ولا تنسى صلاة الفجر بالطبع.

فتح فمه ليرد ولكنها أنهت المكالمة.

غمغم في ضيق: ليكن.

***

لم ينم، كان مذعورًا من النوم ولكن في النهاية لم يستطع المقاومة، كان قد توضأ وصلى الفجر، كان الآن يشعر براحة نفسية غريبة بعد الصلاة وتساءل عن السبب، لقد حاول من قبل منذ سنوات أن يصلي وأن يلتزم بالصلاة، جرب يومها أن يصلي الظهر، كان هذا منذ 12 عامًا تقريبًا، لم يشعر بشيء، كان ينتظر أن ينشرح صدره أو تنتابه طاقة روحية ما بلا جدوى، بل شعر بالملل والضيق وقتها، هكذا استسلم قبل أن ينتهي اليوم، لم يدري هل السبب ضعف العزيمة أم ضعف الأيمان أو ربما لأنه ببساطة ليس إنسانًا صالحًا متدينًا، لعل تلك طبيعته، هكذا أرتضى بهذا التفسير وأراح به ضميره الذي كان يؤنبه، ولكنه الآن وجد نفسه يشعر بالسكينة، سكينة هو في أمس الحاجة إليها الآن حقًا، حاول أن يفسر الأمر فقال أن السبب ربما لأنه محطم وبحاجة إلى الله الآن حقًا، أليست تلك طبيعة البشر، يتوسلون إلى الله عندما يحتاجون إلى شيء ما بشدة ثم ينسون الابتهال إليه وقت الرخاء.

استلقى (مروان) على السرير و غلبه النعاس، سوف ينام ساعة على الأكثر ثم يستيقظ مذعورًا، ترى ما هي أحداث الكابوس هذه المرة؟

كان الآن في شقته، الشقة كما هي، يجلس على المقعد الوثير في الصالة ويمسك دمية جميلة من ألعاب الأطفال البنات طبعًا، وكانت تبدو من النوع غالي الثمن، الدمية لها عيون زجاجية جميلة، الدمية تصدر صوت بابا.. بابا، غريب هذا، كان يعلم أن الدمى تقول ماما.. ماما.. ولكن يبدو أن تلك الدمية مختلفة، ثم جاءت طفلة في الخامسة من عمرها، طفلة جميلة تقترب منه

وهي ترتدي فستانًا منقوش بالزهور، لها شعر بني داكن ناعم كشعره، ملامحها الجميلة تشبهه بشكلٍ ملحوظ.

جلست على حجره، وقالت باسمة: بابا.. ألعب معي.

تطلع إليها ولم يرد، قبضة باردة تعتصر قلبه، طالما أنه حنون إلى هذه الدرجة لماذا لم يتزوج (هيام) ويعترف بالطفلة؟

بدأت دموعه تتساقط بصمت، مدت الطفلة يدها لتمسح الدموع، وقالت : بابا لا تبكي، هل انت حزين؟

ربت (مروان) على شعرها، وقال: أنا آسف.. حقًا.. أنا آسف.

لم ترد الطفلة وإن نظرت إليه بحيرة، ثم قالت: سألعب معك حتى لا تكون حزينًا.

جاء صوت (هيام) المميز يصيح: (مروان).

تطلع نحوها، ساد صمتٌ غريب، الطفلة صامتة على ساقيه، (هيام) ترتدي هذه المره" تايورًا" رسميًا، الزي الذي جاءت به للعمل أول مرة في الشركة.

صاحت من جديد: أستيقظ.

لم يرد، فعادت تهتف: من أجل ابنتك، إنها بحاجة إليك.

هنا تكلم، فقال في حيرة: ابنتي ماتت.

-ابنتك حية، وتنتظرك.. فقط عليك أن تشفى...استيقظ.

صاحت بالكلمة الأخيرة بصوتٍ مرتفع رفيع جعله ينتفض ويستيقظ وقد فتح عيناه في ذعر، مازال في الفندق ويبدو أن الشمس قد أشرقت.. غريب هذا.. لقد نام لثلاث ساعات هذه المرة، ولم يكن ما رأه كابوسًا، بل هو حلم عجيب حزين.

نهض ومسح الدموع من عينيه.. ماهذا الحلم؟ ما معنى أن ابنته حية؟

أخذ حمامًا وتطلع إلى انعكاسه في مرآة الحمام والذي كان عاديًا، ثم أرتدى ثيابه من جديد وغادر ليتمشى قليلًا، فبقائه في تلك الغرفة يصيبه بالجنون، جلس على إحدى المقاهي وطلب فنجان قهوة وراح يتأمل المارة بصمت،عندما أذن الظهر صلى في المسجد ولكنه لم يشعر بنفس الراحة، ثم أسرع إلى بيت الشيخ (محمد عبد الرحيم) وحينما اقترب كانت البوابة الحديدية مفتوحة ويغادر منها رجلٌ بجواره مراهق يبدو ابنه، وكان الرجل يرغي ويزبد، ثم بدأ يصيح: أنتِ نصابة، سأبلغ عنك الشرطة أيتها النصابة الفاشلة.

وقف (مروان) يتأمل الرجل صعيدي اللهجة الذي يرتدي الجلباب وهو لا يكف عن الصراخ، جاء صوت هاديء لفتاة، تقول: سيدي، هذه آخر مرة أنصحك فيها، ابنك ليس ممسوسًا على الاطلاق، جره إلى النصابين من جديد سيزيد حالته سوءً، أبنك مصاب بالفصام، عالجه لدي في المستوصف أو أذهب به إلى أي طبيب نفسي حتى لا تتأخر حالته و...

قاطعها الرجل صارخًا:أخرسي أيتها الكاذبة، أبني ليس مجنونًا، بل أنتِ المجنونة الفاشلة.

وتطلع إلى (مروان)، ثم صاح فيه محذرًا: تلك الفتاة فاشلة ونصابة، لا تصدق أي كلمة مما تقولها.

وغادر في سيارة كانت تنتظره مع ابنه.

دلف (مروان) بحذر من البوابة وتنحنح قليلًا وهو يتطلع إلى الفتاة فنظرت نحوه ليرى أكثر عينين ذكيتين مليئتين بالحكمة مع نظرة أمومة غريبة، كانت الفتاة تملك عينا امرأة عجوز خبرت الحياة برغم أنها بدت لا تزيد في السن عن ثلاثين عامًا في جميع الأحوال، كانت ترتدي ثوبًا واسعًا فضفاضًا وحجابًا كبيرًا تلفه حول صدرها وتتركه ينسدل حتى أسفل ظهرها،

وكانت ملامحها هادئة وجميلة في الواقع، وإن كان الشك قد تملك (مروان) للحظة أنها قد تكون نصابة فعلًا فإن تلك العينين قد بددت هذه الشك، من الصعب على فتاة تملك هاتين العينان الصادقتين أن تكون نصابة أو حمقاء.

قالت الفتاة: أستاذ (مروان) على ما أعتقد.

رد بسرعة: أجل.

أشارت إليه كي يدخل إلى البيت، وقالت: تفضل من هنا، مكتبي في الطابق الأرضي في الشقة على اليسار، تفضل.

كانت الطفلة التي رآها بالأمس وبجوارها صبي مراهق وامراة عجوز تبدو والدتها يقفون بالقرب من باب البيت الرئيسي ينظرون إلى ما كان يحدث من شجار منذ قليل في ضيق، ثم تراجعوا كي يمر (مروان) إلى حيث أشارت له، وكانت الشقة التي أخبرته أنها مكتبها بلا باب.. أجل، بدا له هذا غريبًا، دلف وتركها تتحدث مع والدتها قليلًا ثم تلحق به.

كان المكتب في الغرفة المواجهة للمكان الافتراضي للباب فدلف وجلس أمام المكتب على مقعدٍ جلدي مريح موضوع أمام المكتب.

همست المرأة في أذن الفتاة: لمَ لم تؤجلي حالته؟ أنت تعالجين النساء وأخوك غير موجود لعلاجه؟

ردت بهدوء: حالته لا تحتمل التأجيل.

بعد قليل، جاءت الفتاة فجلست على المكتب وتطلعت إليه بصمت.

***

اندفع (خالد) إلى مكتب والده في الفيلا، حيث كان يتحدث مع (ميرفت) التي كانت تقول بعصبية: أنت دائمًا هكذا، بالطبع عندما تخبره أنك ستزج به في مصحة فسيهرب، كان يجب أن تجلس وتتناقش معه في هدوء.

هتف (محمود): أي مناقشة!! ابنك مدمن، ومتى!! بعد أن وصل لعمر الأربعين، إنه لا يأكل ولا ينام ولا يعمل ولا يكف عن الصراخ أثناء نومه كل يوم.

ردت بحدة معترضة: ولكن جميع التحاليل تؤكد أنه سليم.

-هذا لأنه يقوم بتزويرها حتمًا، لا يوجد تفسير منطقي آخر.

ثم تطلع الاثنان نحو (خالد) الذي دلف إلى المكتب، فقال الأخير: لقد قام (مروان) بفتح هاتفه، لقد تتبع المهندس الإشارة وأكد لي أنه الآن موجود في بنها.

قال (محمود): بنها؟ ما الذي يفعله هناك؟ آه.. لا شك أن الذي يموله بالمخدرات هناك، ليكن.. سأذهب إلى هناك بنفسي

وستأتي معي يا (خالد).

هتفت (ميرفت): أنا أيضًا سأتي معكم، ولا كلمة.. لن أجلس هنا مهم حاولتما إقناعي.

غمغم (محمود): ليكن، تعالي معنا، أحضر معنا رجلين يا (خالد) فقد نضطر...

قاطعته (ميرفت): لن تفعل هذا، لن تجره بالقوة يا (محمود)، إنه ليس طفلاً.

وقال (خالد): أتفق مع ماما يا أبي، لا يمكننا علاجه بالقوة، فلنكتفي بالسائق معنا.

هتف (محمود): ولكن إن فشلنا في إقناعه فسأستخدم القوة حتمًا.

***

قالت الفتاة وهي تنظر إليه من خلف المكتب: أعرفك بنفسي، دكتورة (هدى)، طبيبة نفسية ومعالجة سحر.

رمشت عيناه، وقال: تشرفنا، أنا (مروان) أدير شركة والدي للاستيراد والتصدير.

لم يخفى على (هدى) ردة فعله البسيطة حينما سمع اسمها ولكنها لم تعلق وراحت تتطلع إلى الاستمارة أمامها.

كان (مروان) قد تأمل حجرة المكتب ولاحظ الكتب العلمية والثقافية المتراصة في المكتبة العريضة والكثير من الكتب الدينية كذلك وكتب في علم النفس، لاحظ كذلك أن هناك عدة شهادات معلقة، إنها طبيبة نفسية، بل وحصلت على الماجستير بتقدير جيد جدًا.

قرر أن يكسر هذا الصمت، فقال: أول مرة أقابل معالجة سحر تستخدم الاستمارات.

ردت بهدوء: هذا لكي أتأكد من أن الشخص الراغب في العلاج مسحور بالفعل وليس متوهمًا أو مريض نفسي أو عقلي.

غمغم في قلق: إذًا، هل يمكن علاجي؟ هل يمكن التخلص من هذا السحر؟

ردت: أجل.

زفر في ارتياح وتهللت اساريره، فعادت تقول: هذا السحر قويٌ جدًا، وخادم السحر وصل لمرحلة قوة واضحة.

تساءل (مروان) في حيرة: خادم السحر؟

ردت وهي تتطلع إليه بعينيها المتفحصتين الذكيتين: الجن الذي استعانت به هذه، ما اسمها؟ (هيفاء)، اسم غير معتاد.

ووضعت الاستمارة جانبًا، وأكملت: أنها تكرهك بجنون.

هتف بسرعة: أجل، هذا صحيح.. لا يتعلق الأمر بالحب ولا الغيرة.

ابتسمت ابتسامة خفيفة، وهي تقول: بالتأكيد، هذا سحرٌ أسود، ليس سحر حب أو غيره، وهو سحرٌ شديد الخطورة عليها شخصيًا فمن الممكن للجان أن ينقلب عليها.

ثم بدت عليها الجدية وهي تقول: لماذا؟

-عفوًا!!

-لماذا فعلت تلك الفتاة هذا السحر؟ أريد معرفة الأسباب وبالتفصيل.

قال (مروان) في ضيق: إنها أسبابٌ شخصية، لا أريد حقًا..

قاطعته بهدوء وحزم: سيدي، أسمح لي بالحديث، هناك أمران يجب أن نتفق عليهما قبل أن أبدأ في علاجك.. أولًا: عندما أسألك عن معلومة فعليك أن تجيبني بصراحة لأنها ستفيدني في العلاج، فأنا لا أرغب في معرفة تفاصيل حياتك من باب

الفضول، ثانياً: لا تتحرج من قول أي شيء، أنا قد مر علي وعلى والدي رحمه الله أشخاصٌ لهم قصص يشيب لها الولدان وأنا لا أحكم على أحد ولا أصنف الناس فلا تظن أنني قد أرفض علاجك أو أحتقرك أو غيره.

ثم شبكت أصابع يديها أسفل ذقنها وأكملت: هل أتفقنا؟

مضت لحظة صمت ثم تمتم: أجل.

وتنحنح قليلًا.. جاءت أختها الصغيرة بصحفة عليها كوبين من العصير ووضعتهم ثم انصرفت.

قالت (هدى): أخي هو من يعالج الرجال عادة، ولكنه مشغول في الجامعة وامتحاناته خلال أيام، لهذا سأتولى أنا علاجك هذه المرة فقط حتى يعود.

غمغم شاكرًا، ثم تناول كوب العصير وراح يرشف منه في توتر، ظلت (هدى) صامتة ترشف من كوبها بدورها، حتى قال (مروان) فجأة: كنت متزوج من أختها ولكننا انفصلنا فانتحرت.

رشفت (هدى) من كوبها رشفة ثم وضعت الكوب الفارغ في الصحفة، وقالت: إذًا فقد تزوجتها عرفيًا، وكانت هناك طفلة كذلك ولكنها قد ماتت.

هتف (مروان): كيف.. كيف عرفتِ؟!!

وخطر على باله أنها تعرف (هيفاء) وأنها قد أتفقت معها بشكلٍ ما.

ردت (هدى): أنت كتبت في الاستمارة أنك أعزب، معنى هذا أن زواجك ليس زواجًا من وجهة نظرك، لهذا دفعك عقلك الباطن إلى كتابة أعزب لا مطلق، أما الطفلة فقد ذكرت تفاصيل كابوسك الأول وقلت إن الكلب الأسود كان يصدر صوت طفلة، إن كنت قد قلت صوت رضيع أو طفل لما خمنت، ولكنك كتبت تحديدًا طفلة، حددت أنها أنثى.

قال بشحوب: هل تقومين بعلاج نفسي أم علاج من السحر؟

ردت باسمة: الأثنين معًا.

ثم بدت نظرة محذرة في عينها، وقالت بصرامة: هذه أخر فرصة لك، إذا حاولت اللف والدوران بدلاً من الإجابة المباشرة فسأطردك.

-ليكن.

-والآن، أحكي لي كل شيءٍ بالتفاصيل.

الفصل السادس

(سد الثغرات)

بصبر استمعت إليه (هدى)، لمدة ساعة راح يروي كل شيء، الغريب أنه قد شعر براحة نفسية وهو يدلي بكل شيءٍ بهذا الشكل، ثم قال: كما ترين، أنا حقًا لم أكن أرغب في أن تموت (هيام)، تمنيت لو أنها قبلت بعروضي ولكنها..

ردت (هدى): ولكنها فضلت الموت على ألا تصبح زوجتك.

مضت ثوانً من الصمت، ثم قال: أظن ذلك.

قالت (هدى): حسنًا، الآن دعني أشرح لك باختصار، (هيفاء) قامت بعمل سحرٍ شديد القوة حقًا رغبة منها في الإنتقام منك، هذا السحر قامت به بثلاث طرق معًا، أستخدمت بعض شعراتك في ذلك الصندوق وهو سحر بسيط وأحمق وعادة لا يجدي نفعاً، ولهذا وضعته في مكان قد تتمكن من العثور عليه فيه، الثاني غالبًا قوي واستخدمت فيه قميصك، أما الثالث فهو ما تناولته، إنه هو السحر شديد القوة والسواد والذي سيستغرق بعض الوقت حتى ننهيه تمامًا، أنت قد ابتلعت السحر وبالتالي أصبح لجسدك علامة يتتبعها الجن الذي قامت بتسخيره.

واعتدلت في مقعدها، وقالت: أنها تستخدم شيطان وهو يسعى...

قاطعها (مروان): مهلًا، كيف عرفتِ أنه شيطان، لقد قلتي إنه جن.

ردت موضحة :الشياطين هم الجن الكافر، الجن المؤمن يسمى جن، الكافر منهم يسمى شيطان، إنها قد استعانت بشيطانٍ أو لنسميه خادم السحر حتى لا ترتبك، مطلوب منه أن يصيبك بالجنون أو يدفعك إلى الإنتحار، الآن أنت تضعف يومًا بعد يوم وهذا يغريه بشدة بمحاولة الإستحواذ على جسدك وهو قد أقترب جدًا بالمناسبة ولا شك أنه غاضبٌ الآن بجنون لأنك لجأت إلي.

قال (مروان) في دهشة: استحواذ؟!! تعنين كالأفلام الأجنبية عندما يذهب البطل أو البطلة إلى منزل مسكون أو مقابر.

قالت باسمة: الأمور ليست بتلك البساطة ولكن نعم، إنه يسعى لذلك ولكننا سنوقفه ونتخلص منه كذلك نهائيًا ونحصنك كذلك ضد أي سحر قد يقع لك في المستقبل وإن كنت أستبعد أن تعود (هيفاء) إلى مصر وتحاول من جديد.

وفكرت قليلًا، ثم قالت: علاجك سيستغرق حوالي أسبوع، سنقوم به بطريقتين، الأولى سد الثغرات، سوف أشرح لك بعد قليل، الثانية إعادة خادم السحر إلى عالمه أو على الأقل إبعاده عنك إلى الأبد.

-ولكنك قلت إنه يرغب في أن أنتحر أو أجن؟

-كانت هذه هي الخطة، ولكنني أوضحت لك منذ قليل أن خادم السحر قد ينقلب على الساحر، إنه لم يعد يبالي بتنفيذ أوامرها، لقد أغراه ضعفك ودفعه لمحاولة الاستحواذ على جسدك.

-أنا بالفعل لم أعد أكل أو أنام.

قاطعته: لا أقصد ضعفًا جسديًا أو صحيًا، اقصد ضعفًا عقائديًا وضعفًا نفسيًا، وكما قلت سأعالجك.

تساءل (مروان): وكم سيكلفني العلاج؟

تأملته بنظرة لوم ساخرة، وهي تجيب: أنا لا أتقاضى أموالًا.

-ماذا إذًا؟ تريدين هدايا؟ كلا.. تريدين مني وظيفة أو واسطة؟

ابتسمت برغمها، وغمغمت: أنا لا أتقاضى أجرًا على ذلك العمل.

قال في دهشة: هل أنتِ جادة؟ لا تتقاضين أي مقابل؟!!

-لمَ الدهشة؟!

-هل تعلمين كم دفعت من أموال حتى الآن كي أعالج من السحر؟

-لاشك أنه مبلغ كبير، ولكن هذا جزاء تعاملك مع نصابين، إن لدينا دخل ثابت لا بأس به وأنا في الأساس طبيبة نفسية وأتقاضى أجرًا وأعمل في مستوصف خاص ثلاثة أيامٍ أسبوعيًا، أما هذا العمل فلا أتقاضى عليه أجر كما أخبرتك.

ونهضت حاملة أكواب العصير الفارغة، وقالت: سأعود بعد ثواني.

ظل جالسًا ينتظرها حتى عادت إليه فجلست إلى المكتب، وقالت: الآن سأشرح لك استراتيجيتنا ولكن أولًا ينتابني الفضول وأريد أن أسألك سؤالًا هامًا.

-تفضلي.

-أنت أدركت أنك مسحور وقلت أنك كنت تشعل القرآن في التلفاز وكان هذا يمنع الأشياء المخيفة غالبًا من الظهور في حجرة ال.. الحجرة التي بها التلفاز.

رد: هذا صحيح.

تأملته بنظرتها الذكية العميقة، ثم قالت بهدوء: هل خطر ببالك أنك قد تنقذ نفسك إذا صليت؟

أحمر وجهه قليلًا وقال: أنا لا أحب أن أكون منافقًا.

ظلت تتأمله بنظرة تعني "أكمل من فضلك".

تنهد، ثم قال: أعني، أن أصلي فقط كي أنقذ نفسي، ليس إلتزامًا ولا حبًا في الصلاة، بل لأن لي مصلحة ما في الصلاة.. فكرت ثم لم خطر هذا في بالي تراجعت.

أرتفع حاجبا (هدى)، ثم قالت: لقد تأثرت.

وأردفت بسرعة وإن فقدت شيء من الهدوء: إن عقلك لديه قدرة عجيبة على إختراع الحجج البلهاء كي يبرر لك أفعالك الخاطئة.

حدق فيها (مروان) ولم يعلق في البداية، ثم قال بشيء من الحدة: عفوًا!! حجج بلهاء؟! هل ينبغي أن اصلي لأن لدي مصلحة فقط.

ردت بحزم: أجل.

ثم أكملت وقد استعادت هدوئها: أيهما أفضل من وجهة نظرك، ترك الصلاة تمامًا أم الصلاة من أجل مصلحتك؟ هل تظن أن جميع المصلين يصلون لأنهم يعشقون الصلاة في البداية؟ كلا...

ثم ابتسمت كي تخفف التوتر، وأكملت: أعتذر، أنا لا أقصد القيام بوعظك، أنا أيضًا لا أحكم على الناس وأقوم بتصنيفهم كما قد تظن بعد ما قلته لك للتو، ولكن، إعلم أن أغلب الناس تصلي من أجل مصلحتها في البداية، يصلون من أجل دخول الجنة، يصلون من أجل أن يبارك الله لهم في الرزق أو يشفيهم، بل لقد عرفت رجلًا في الستين لم يصلي إلا حينما مرض ابنه وكان يدعوا له بالشفاء في كل ركعة.

وتطلعت إليه فرأته يستمع إليها باهتمام، فعادت تكمل: هذه هي المرحلة الأولى عادة، ثم يأتي بعد ذلك التعود والرغبة في الالتزام كمسلم، أحيانًا تسبق تلك المرحلة ما قبلها، ثم أخيرًا تصل إلى ما يصبو إليه كل مؤمن، تصلي لأنك أصبحت تعشق الصلاة وتتعايش مع كل أركانها وكل حركة فيها، أصبحت تعشق تلك اللحظات التي تقف فيها بين يدي الله طامعًا في رضاه وكرمه ورحمته.

مس كلامها الأخير قلبه حقًا، لم يلقى (مروان) من قبل من يحدثه بتلك الطريقة، وأعترف لنفسه أنه لطالما رغب في الصلاة ولطالما تكاسل عنها وأخترع الحجج بالفعل كما قالت كي لا يشعر بالذنب.

قال بصدق: معكي حق، أنا بالفعل أدرك انني لست إنسانًا جيدًا...

قاطعته: أنا لم أقل هذا ولم يخطر هذا ببالي، طالما تشعر بالذنب عندما تخطيء فهذا مؤشر على أنك مازلت إنسانًا لديه ضمير، فقط ينقصك أن تكف عن تجاهل ضميرك وأن تصلح أخطائك، ولهذا.. أخبرتك أنك مليء بالثغرات التي يستغلها خادم السحر، هناك الثغرات الايمانية (وأشارت بأصبعها علامة أولًا)، هناك الثغرات النفسية (ورفعت إصبعًا آخر علامة ثانيًا).

وأخرجت ورقة كبيرة من أحد أدراج المكتب، وقالت: سنبدأ بسد الثغرات الايمانية، أولًا عليك بالصلاة في أوقاتها.

رد بسرعة: أنا بالفعل منذ الصباح الباكر وأنا قد اتخذت قرارًا بالألتزام بالصلاة، هذه المرة عندما صليت لم أشعر بالملل أو الفتور كالسابق، بل شعرت براحة وسكينة لم اعتدها.

-هذا ممتاز، إذًا ستحاول قدر استطاعتك الالتزام بالصلاة، قد تواجه صعوبات في البداية ولكن لا تقلق، أنا واثقة بأنك ستتغلب عليها، هذا أولًا.

وناولته الورقة فأخذها وقرأها، ثم قال: هل هي رقية؟

ردت: أجل، سوف أقوم برقيك يوميًا بالرقية الشرعية، وأريدك أن تحفظ تلك الرقية في الورقة حتى تستخدمها لترقي نفسك يوميًا مع التنفيس، إنها سورة الفاتحة والإخلاص والمعوذتين وسورة الكافرون إضافة إلى آية الكرسي وآيات من سور الأعراف وطه ويونس والبقرة، سيكون حفظهم سهلًا.

قال بعزم: سأفعل.

عادت تقول: هناك ورق السدر، إن رائحته كريهة بالنسبة للشياطين بالمناسبة، أريدك أن تستخدم مغلي 7 أوراق مع ماء الاستحمام، يمكنك أن تضيف أي روائح أو منتجات عناية بالبشرة تريد، لا تقلق لن يؤثر هذا على السدر، لدي بعضه وسوف أعطيك منه كمية، يمكنك أن تشتريه من العطارين.

-ماذا عن بذر الرجلة؟

-هراء.

-وماذا عن الماء والملح؟ عرق الحلاوة؟

-هراء، ثم هراء.

ابتسم وقال لنفسه: أنا محظوظٌ حقًا لأنني جئت إليها.

قالت وهي تنهض: هذا يكفي لليوم، أراك غدًا في نفس الموعد.

نهض بدوره وقال: شكرًا لك كثيرًا، إنني حقًا ممتن لك.

-لا عليك، إنما أقوم بعملي.

استدار لينصرف، فقالت: أنت طبعًا تدرك أن عليك أن تعثر على مكان السحر الثاني، القميص، أليس كذلك؟

-.....

***

لم يكن (مروان) معتادًا على الجلوس في المقاهي عامة ولا المقاهي الشعبية خاصة، ولكنه وجد لديه الرغبة في الجلوس قليلًا في الهواء ومشاهدة الناس، هكذا جلس على مقعد في ذلك المقهى بعد أن صلى العشاء في المسجد وطلب فنجانًا من القهوة بالحليب وجلس يتابع المارة في شرود، منذ زمن لم يتأمل الناس، كان مشغولًا بالعمل والنساء فقط.. هكذا راح ينظر إلى وجوه الناس والأطفال.. الأطفال مخلوقات مزعجة لا تكف عن طلب الأشياء ولكنهم أجمل وألذ أزعاج رأه (مروان).

كان في الواقع وفي أعماقه حنونًا، متى تحول إلى شخص قاسٍ عديم الضمير؟ وضع عامل المقهى الفنجان أمامه وهو ينظر نحوه في شيء من الشفقة، لا شك أن مظهره الناحل وعيونه المرهقة المنتفخة والشيب الذي زحف على شعره في الآونة الأخيرة، كل هذا مع ملامحه الوسيمة كان يثير الشفقة.

شكر العامل وراح يرشف القهوة.. تساءل إن كان يستطيع أن يأكل الآن أم يؤجل الأمر للغد.

دفع ثمن القهوة وعاد إلى غرفته في الفندق، قام بغلي ورق السدر ووضعه في حوض الاستحمام الصغير البائس الذي لايقارن حتمًا بالبانيو الفاخر في شقته أو في فيلا والده، وتذكر أن عليه شراء بعض الثياب، لن يظل أسبوعًا بنفس الملابس، أسترخى في الماء وأغلق عينيه، فقط يتمنى ألا يظهر له شيءٌ مخيف حتى ينتهي من حمامه.

فجأة فتح باب الحمام الملحق بالغرفة، واندفعت الطفلة إلى داخل الحمام وهي تغلق عيناها وتقول: بابا، لقد مللت من الانتظار، أنهي حمامك بسرعة.

وأسرعت تغادر وتغلق الباب، راح (مروان) يلهث فقد أفزعه ظهورها المفاجيء، كانت يده ترجف الآن من الإنفعال.

قال لنفسه بصوتٍ مرتفع: هذا وهم.. وهم.. وهم.

وحاول أن يهدأ من انفعالاته، وأكمل بحدة: ماذا؟!! هل أنت مغتاظ من رائحة السدر؟ هل تعلم أن نهايتك قد اقتربت يا خادم

السحر؟ ليكن.. حاول.. أبذل جهدك كله فلن تنجح في خداعي هذه المرة.

طرقات على الباب من جديد، وصوت الطفلة: بابا، جدوا قد أتصل، إنه يقول أنه قادمٌ غدًا، أسرع كي نلعب معًا قبل أن يأتي ويأخذك إلى العمل.

وضع (مروان) يديه على أذنه وحاول أن يسترخي، طرقات من جديد أعلى صوتًا هذه المرة، والطفلة تصيح: بابا، أسرع كي تلعب معي.. بابا.. بابا.. بابا.

.....-

***

قالت (هدى) وهي تتناول الإفطار على المائدة مع أسرتها وتتحدث عبر الهاتف في نفس الوقت: أجل أخي.. سوف أنتظرك إذًا، إنه ليس نذلًا.. لحظة.

ونهضت متوجهة إلى حجرتها وجلست على حافة السرير وعادت تحدث أخيها عبر الهاتف: أتفق معك في أن مافعله كان تصرفًا دنيئًا وخسيسًا، ولكن ما دفعني إلى قبول علاجه أنه نادمٌ بشدة وإن كان يرفض الأعتراف بذلك لنفسه.. بالطبع قمت بتحليله نفسيًا.. هل أنا طبيبة نفسية بلا فائدة؟ لأنه جاد في الألتزام بالصلاة والرقية.. إنه أنسانٌ صالحٌ في أعماقه.. ليس كما تظن.. تلك الطفلة التي ماتت سببت له شعورًا عميقًا بالذنب والحزن، ولكنه يخفي ذلك حتى على نفسه.. سأقوم حتمًا بعلاجه نفسيًا مع علاج السحر ولكن ليس بشكلٍ مباشر حتى لا يهرب أو يرفض.. كما أخبرتك إنه يخفي مشاعره على نفسه، تجربة قديمة مريرة حتمًا، أجل.. سننتظرك إذًا، ولكن يجب ألا يؤثر ذلك على امتحاناتك، بالتأكيد.. إلى اللقاء.

وانهت المكالمة وعادت تتناول الإفطار.

قالت والدتها بفتور: إن كان أخوك يرى أنه لا يستحق العلاج فمعه حق.

وأشارت بالشوكة نحوها، وهي تكمل: أنتِ دائمًا عاطفية وتشفقين على الجميع، هل تذكرين ذلك المهندس؟

-أنه ليس مثله.

-أنتِ حرة، أنا لن أتدخل في عملك أنتِ وأخوك، ولكن إن كان لا يستحق...

قالت (هدى) بضيق: أمي، لا أحد يستحق أن يتعرض للسحر والتعذيب بهذا الشكل مهما أذنب، لاعذر هنا، السحر من الموبقات السبعة وأنتِ تعلمين أن الساحر عند كثيرٍ من العلماء في حكم الكافر.

أرتبكت الأم وردت بسرعة: أعلم، ولكن.. حسنًا، ولكن كوني حذرة، المهندس عاد يخدع البنات بعد علاجه حتى قتل على يد أحداهن.

بعد صلاة الظهر، وصل (مروان) فجلس على المقعد المقابل للمكتب وقد بدا عليه الارهاق الشديد، فقالت (هدى):مزيدٌ من الأوهام؟

غمغم: أجل.

ثم أردف في شيءٍ من الحماس: ولكنني نمت جيدًا، بدون كوابيس، نمت ربما لعشر ساعات متواصلة.. و.. و...

صمت وهو ينظر إليها بحذر، فقالت: هل فاتتك صلاة الفجر؟

رد بأرتباك: أجل.

-هل أكلت؟

-ليس بعد، لا تقلقي فسآكل، أنا فقط اشعر بالقلق بسبب.. كما شرحت في الاستمارة.

عادت تقول: هلا بدأنا إذًا، سأقوم برقيك، أخي سيأتي في اليوم السابع ويرقيك بنفسه، أيضًا.. أريدك أن تقرأ الرقية على الماء الذي تشربه، نريد تطهير جسدك خطوة.. خطوة.

-حسنًا.

بعد نصف ساعة غادر منزلها وعاد إلى الفندق فوجد والديه وأخوه يجلسون في حجرة الأستقبال.

***

في عصبية نقر (محمود) بأصابعه على المائدة في ذلك المطعم البسيط وراح ينظر بغضبٍ واستنكارٍ إلى (مروان).

قالت (ميرفت): هذا المكان غير راقٍ على الأطلاق.

غمغم (مروان): الطعام هنا جيد ونظيف، لا تقلقي.

ردت (ميرفت): أنا لن أكل هنا.

قال (محمود):إذًا، أنت جئت هنا كي ترى طبيبة نفسية.

-أجل.

-أنت إذًا لا تأكل ولا تعمل ولا تنام وأنهيت خطبتك وأحرجتني أمام (عصام) بك؛ لأنك مكتئب قليلًا.

ضغط على كلمة مكتئب بأسنانه.

أسرع (خالد) يقول: الأكتئاب ليس مرضًا سهلًا أبي.

هتف (محمود): اصمت أنت.

ثم عاد يكمل وهو ينظر بغضب إلى (مروان): ومتى ستشفى بإذن الله وتعود إلى القاهرة؟

رد (مروان): خلال أسبوع، تحديدًا خمسة أيامٍ أخرى.

نهض (محمود) وقال: هيا بنا نذهب لنرى تلك الطبيبة.

قال (مروان) وهو ينهض مسرعًا: ماذا؟!! لماذا ترغب بفعل هذا وإحراجي وأزعاجها؟

أرتفع صوت (محمود) بشكلٍ جذب انتباه رواد المطعم والعاملين، وهو يهتف: كي أتأكد بنفسي من أنك بالفعل مريض، ليس الأمر أنك تأتي إلى هنا كي تلتقي بالتاجر الذي يمدك بالمخدرات.

أحمر وجه (ميرفت) و(مروان) في حرج، وراح الأخير يختلس النظرات إلى الناس، وهو يتمتم: بابا، أرجوك، أخفض صوتك قليلًا.

أرتفع صوت أذان العصر، فقال (مروان): سأذهب لأصلي العصر في المسجد القريب ثم سأتصل بها أولًا للاستئذان.. ماذا؟ غير معقول أن نقحم أنفسنا في بيت الطبيبة دون استئذان، أليس كذلك؟

ثم أشار إليهم كي يتبعوه ومنحهم مفتاح حجرته بالفندق وتوجه إلى المسجد، قال (خالد): مهلًا، سآتي معك للصلاة أيضًا.

وسار بجانبه يثرثر....

قالت (ميرفت):عزيزي، (مروان) يصلي.

غمغم (محمود): أجل، ولكن هل يصلي حقًا، أم أنه يتظاهر بذلك كي يخدعنا؟

***

ابتسمت (هدى) في لطف وراحت تنظر إلى الأسرة الصغيرة غريبة الأطوار بهدوء وتفحص، كان (محمود) ينظر باهتمام إلى الشهادات المعلقة على الحائط في المكتب، ثم قال بلهجته الصارمة نافذة الصبر: هل سيشفى أبني ويعود كما كان.

ردت بهدوء: أتمنى هذا.

ونظرت إلى (مروان) الذي بدا عليه الضيق والحرج.

عاد (محمود) يقول: وما الذي يدفع رجلًا وسيمًا ناجحًا في عمله وبصحة ممتازة وعلى وشك الزواج إلى الاكتئاب؟!

- شيئٌ قديم.

-ماذا تقصدين؟

-أنا أطلق على حالته اسم الثغرة، قد يتعرض الإنسان لتجربة قاسية تؤذيه فإذا لم تعالج بطريقة صحيحة وقتها فأنها تسبب ثغرة.. هذه الثغرة تنفذ منها أمراض نفسية وروحية وجسدية.

عقد (محمود) حاجبيه، وقال في حدة ضايقتها: ماذا تعنين بكلامك؟ لمَ لا تعطيني إجابة مباشرة؟

ردت ببرود: لديه مشكلة نفسية ما بسبب تجربة تعرض لها في الماضي، والمفترض بما أنك والده أن تدرك ما هي تلك التجربة.

أحتقن وجه (محمود) وهم بالإنفجار في وجهها، لكنها نهضت فجأة وقالت: أرجوا المعذرة ولكن لدي موعد بعد دقيقتين مع مريضٍ آخر لذا....

قال (محمود) في غضب موجهًا كلامه إلى (مروان): جئت من القاهرة إلى هنا كي تعالجك تلك الطبيبة عديمة الذوق بينما أرسلتك إلى طبيب نفسي مشهور فقلت إنك بخير.

قال (مروان) وهو يشير إلى والده برفق: فلنكمل حديثنا في الفندق أبي من فضلك.

ونظر معتذرًا إلى (هدى).

وحينما جلست (هدى) على مائدة العشاء مع أسرتها، قالت والدتها: لماذا جاءوا جميعًا لرؤيتك.

تنهدت (هدى) وقضمت من البيضة المسلوقة، ثم قالت: لا بأس، كانت تلك فرصة كي أتعرف على عائلته.

ثم قالت لنفسها: ولكن، ماهي التجربة التي مر بها في الماضي؟

عادت والدتها تقول: ما انطباعك عن تلك الاسرة؟

قالت (هدى): أما عن الأم فهي من النوع الذي يقضي وقته في النادي وصالونات التجميل، ليست سيئة وتبدو حنونة ومهتمة، الأب مستبد ومسيطر وأكثر شيءٍ يغضبه هو أن يفقد السيطرة على ولديه، لا شك أن (مروان) بطبيعته العنيدة قليلًا قد أتعبه وتمرد عليه، ولكن (مروان) مازال يشعر بالرهبة حتى اليوم من والده.

وقالت لنفسها:إنه غاضبٌ من والده غضبًا عميقًا ومكتوم، حتى إنه على مستوى الوعي لا يدرك أنه غاضبٌ منه.

تساءلت الأم بفضول: فيما شرودك؟ ماذا عن الأخ؟

ردت وهي تلوك بقية البيضة: يحب أخيه ويحترمه كثيرًا ويغار منه في نفس الوقت، إنه أقل منه ذكاءً ووسامة، لا شك أنه بذل جهدًا كبيرًا كي يجعل نفسه الابن المفضل لوالديه دون جدوى، تفوق في الدراسة، تزوج من اختارها والديه له، أنجب لهما أحفادً، يتصرف باستقامة وإحترام ومع ذلك، ظل (مروان) هو الابن المفضل لهما، لا شك أن وضع أخيه الحالي يسعده بشكلٍ خفي ويحزنه في نفس الوقت.

وتذكرت نظرات (خالد)، فعادت تتنهد ثم قالت: شبعت الحمد لله، سلمت يداك أمي.

في اليوم الثالث جاء (مروان) بعد صلاة الظهر فجلس في المكتب واعتذر في حرارة عما حدث بالأمس من أسرته.

وقال: أسف لأنني جررتك إلى كذبتي، ولكن كان علي إخبارهم أنني مريض نفسي.

ردت (هدى): أنا لم أكذب، أنت تعاني من الناحية النفسية بالفعل.

غمغم في ضيق: أنا بخير، حقًا.. أنا على مايرام من الناحية النفسية.

-إذًا، هل رأيت كوابيس أو هلاوس بالأمس؟

-كلا.

ثم تهللت أساريره، وهو يكمل: بالأمس تناولت شطيرة شاورما، كانت مليئة بالديدان والحشرات كالمعتاد ولكن هذه المره كان طعمها عاديًا لامقززًا، أليس هذا أمرٌ جيد؟

-بالتأكيد، إنه يزداد ضعفًا خادم السحر والسحر نفسه.

ابتسم في أمل، فقالت (هدى): علينا أن نعالج الثغرات النفسية، سأسألك بضع أسئلة وأرجوك أن تجيب بصراحة قدر المستطاع.

-أجل.

جاءت أختها بكوبين من الشاي بالنعناع فشكرها باسمًا، ثم عاد يقول في قلق: ولكن ماذا عن القميص؟

ردت وهي تتناول كوب الشاي الخاص بها: لن تضعه في مكان يمكن العثور عليه فيه بسهولة، لن تغامر بأن يأخذه شخصٌ ما فيقوم بغسله وارتدائه، لن تتركه مع أحدٍ من المعارف أو الجيران، لن تلقيه في النيل أو البحر أو القمامة أو الشارع، لقد قامت غالبًا بدفنه في مكانس ما، مقابر على الأغلب.

ضيق (مروان) عينيه مفكرًا، ثم قال:هل تظنين أنها ربما دفنته مع (هيام)؟

رشفت من الشاي، وقالت: ربما، عليك أن تعثر عليه عند عودتك إلى القاهرة وأن تقوم بحرقه.

-سأفعل.

ومد يده يتناول كوب الشاي وتطلع إليها في اهتمام منتظرًا منها أن تسأله، فقالت: أنت قلت أن (هيام) قد أحبتك، هل أحببتها أيضًا؟

هز رأسه نفيًا وقال: كلا، ولكنني أحببت حبها لي.

-همم.

رشفت من الشاي، ثم عادت تقول:هل هناك فتاة غيرها أحبتك؟

رد متهكمًا: أحبتني؟ كلا، هناك فتيات عديدات أحببن أموالي، أحببن الذهب والهدايا، كن عشيقات بكامل رغبتهن ووقتما قررت أن أقطع العلاقة مع أحداهن يمر الأمر بسلاسة.

أرتفع حاجبا (هدى) ولم تعلق، فقال: أنا لم أقل أنني إنسانٌ صالح، لقد كانت حياتي هكذا، قبل أن التقي (هيام) عرفت قبلها حوالي دستة فتيات كنا كما أخبرتك، بعضهن لم يقمن علاقة.. فقط..آه.

كان يريد أن يقول أنه حصل فقط على قبلات ولمسات لا أكثر، ولكنه شعر بأنه لا يجب أبدًا أن يذكر تلك الألفاظ أمام تلك الفتاة المهذبة المتدينة الجالسة أمامه حتى لو كانت تقوم بعلاجه، فأكمل: ولكن اغلبهن كانوا كما وصفت لك، أنا إنسانٌ فاسد.

أحمر وجه (هدى) قليلًا، ثم قالت: لقد سمعت من قبل غعترافات يشيب لها شعر الرأس، صدقني أنت لست بهذا السوء.

ورشفت من الشاي ففعل مثلها، ثم عادت تقول: كانت (هيام) مختلفة؟

-أج، كان حبها لي في الواقع غير طبيعي، أظن أنها حرمت من حنان الأب قليلًا لأنها تعلقت بي بسرعة وبشكلٍ شبه مرضي، قالت مرة إن والدها كان قاسيًا جدًا.

وشرد قليلًا، ثم عاد يقول: كان من المفترض أن تنساني بعد فترة من البكاء والحزن وأن تكمل حياتها، ولكنها أختارت أن تستكمل الحمل والإنجاب وأن تتعلق بوهم أنني سأعود إليها وأتزوجها، كانت حمقاء.

شعرت (هدى) بالضيق، ولكنه أردف بسرعة: حمقاء وقعت في فخ وغدٍ عديم الضمير.

تأملته (هدى) ثم وضعت كوب الشاي جانبًا، وقالت: إن عاد بك الزمن، هل كنت ستغير شيئًا من طريقة تعاملك مع هذا الأمر؟

تحركت أصابع يده في عصبية،ثم قال: هل هذا جزء من العلاج؟

-أخبرتك من قبل أنه كذلك، إن عاد بك الزمن.. هل ستغير قراراتك؟

مط شفتيه، ثم قال: سأجيبك بصراحة، كنت سأتزوجها رسميًا ثم أطلقها بعد شهر، لن أتخذها زوجة بجانبي ولن أبادلها الحب.. ابنتي كنت سأنفق عليها وكنت سأخذها معي يومًا في الأسبوع.

كان لدى (هدى) عدة أسئلة ولكنها أدركت أنه متضايق ولن يجيب الآن، فقالت باسمة: أستمر على الرقية والصلاة ولا تنسى أن تقرأ الرقية على ماء الشرب.

-أجل، شكرًا لك.

***

في الأيام التالية أصبح الأمر روتينيًا.. نفذ (مروان) تعليمات (هدى) حرفيًا وأنتظم في الصلاة أغلب الوقت ولكن الفتور كان ينتابه أحيانًا وكان يتكاسل على الصلاة ثم يلوم نفسه، في اليوم السادس أصبح الطعام طبيعيًا، لم يعد يرى ديدان أو حشرات، لم يعد يرى كوابيس وأصبح ينام لثمان ساعات.. وبينما هو ذاهب إليها كان يدرك أن غدًا هو آخر يومٍ وأن أخاها سيصل اليوم مساءً ليقوم بالرقيه غدًا، من الواضح أن الرقية الأخيرة مختلفة، كانت قد كفت في الأيام السابقة عن سؤاله عن أي شيءٍ شخصي أو عن مشاعره مما أشعره بالأرتياح وإن أعترف لنفسه أنه كذلك شعر بالراحة عندما تحدث معها من قبل وأجاب اسئلتها، وقال لنفسه أنه إن كان بحاجة لطبيب نفسي فلماذا يذهب إلى أي طبيب بينما يشعر بالثقة والأمان والراحة معها؟

بينما جلس أمام مكتبها، قالت فجأة: هل شعرت بالحزن عندما عرفت بإن الرضيعة قد توفيت؟

رد: لم أشعر بشيء، ربما قليلٌ من الأسى.. أنا في الواقع إنسان بارد.

ردت بلهجة حيادية: كيف؟

تطلع أمامه في شرود، ثم قال: لا أدري كيف أصف الأمر، أتحدث عن نفسي قبل تعرضي للسحر.. أنا تقريبًا لا أحزن.. عندما أسمع أخبارًا سعيدة أشعر بشيء من السعادة لثوانٍ ثم ينتهي الأمر، لا شيء تقريبًا يغضبني أو يجعلني عصبيًا.. حتى أكثر فتاة أثارت أعجابي، كانت تدعى(سارة) بالمناسبة وقد حكيت عنها ل (هيام) من قبل، مللت منها وتركتها خاصة بعد أن تسرب خبر علاقتنا إلى أحد المجلات الصفراء وأغضب والدي وأمرني أن اقطع علاقتي بها، قطعت علاقتي.

-قطعت علاقتك بها بعد أن أمرك والدك مباشرة أم بعد فترة؟

-بعد شهر.

ولمعت في عينيه نظرة تحدي أختفت سريعًا.

قالت (هدى) باهتمام: هل شعرت بالحزن على الطفلة بعد ذلك؟ أنا أسألك لأنه من الشائع لدى البعض ألا يحزن مباشرة بل أحيانًا يستغرق الأمر وقتًا.

رد وهو مازال ينظر أمامه: أجل، أحزن قليلًا كلما خطرت في بالي.

-فهمت، والآن هيا لأرقيك.

في اليوم السابع والأخير التقى (مروان) بأخيها، كان قريبًا منها في الملامح.

قالت : هذا هو الأستاذ (مروان محمود)..هذا أخي (عبد الله)، لقد أنهى دراسة المحاماة ويقوم بعمل دراسات عليا ولديه أمتحانات قريبًا.

صافحه (مروان) وقال (عبد الله): مرحبًا، تقول الدكتورة (هدى) أنك تقريبًا أصبحت بخير.. ممتاز.. الآن سأرقيك بسورة البقرة وبعض الأيات الأخرى، تفضل معي من فضلك.

شعر (مروان) بشعورٍا غريب وانتابته فكرة مفاجئة.. قال ل (هدى) بغتة: مهلًا.

تطلعت إليه وكذلك فعل أخوها، فقال: أنتِ.. أنتِ.. أسألتك لي.. أستنتاجتك كلها كانت صوابًا.

رد (عبد الله): أختي طبيبة بارعة حقًا.

قال (مروان) في شك: أو أنك تعملين معها إليس كذلك؟ أنتِ تعملين مع (هيفاء)؟ لهذا تعلمين كل شيءٍ عني.

ابتسمت (هدى) ابتسامة ساخرة قليلًا وظلت تنظر إليه في برود، بدأ (مروان) يشعر بدوارٍ غريب، فغمغم: لقد كنتِ تدسين لي شيئًا ما في المشروبات، أليس كذلك؟ لهذا أشعر بالدوار.

أرتفع رنين هاتفه المحمول فتناوله من جيبه،كان هذا والده.

قال (عبد الله) وهو ينظر إلى أخته: ماذا يفعل الآن؟

قال (مروان) ردًا على المكالمة: مرحبًا أبي، سأعود اليوم.. أجل.. ما .. ماذا؟

وانهى المكالمة، ثم تطلع إليها بنظرة اتهام، وقال بحدة: والدي قد سأل عنك في النقابة.

قالت باسمة: هل فعل؟

عليه أن يغادر المكتب ومن حسن الحظ ان الشقة بلا باب.

رد وهو يتراجع قليلًا :لا يوجد طبيبة نفسية باسمك.

أتسعت ابتسامتها ثم قالت: هل هذا كل ما لديك.

هتف: ماذا تعنين؟

ردت: أنا لا أتحدث معك يا (مروان).. أنا أتحدث مع خادم السحر الذي يعبث بعقلك، هل هذا ما لديك؟ أنت مهزوم.. انتهى أمرك.. سوف تغادر إلى عالمك عاجلًا أم أجلًا.

قال (مروان): لن تخدعيني بهذا الحديث.

قالت في صرامة: أنه يعبث بعقلك، يحاول النجاة من الرقية الأخيرة.. لم يتصل بك أحد.. أنت أخرجت هاتفك بغتة ورحت تكلم نفسك،وهذا الدوار الذي تشعر به الآن هو وهم، أفق وأستعد السيطرة على عقلك يا (مروان).

غمغم (مروان): هذا.. أنا..

قاطعته: أرجوك ثق بي.. أستلقي على هذا السرير في الحجرة الداخلية، سيكون معك أخي كي ننهي الأمر، هيا.

-ماذا.. ماذا إن كنتِ...

-هل تظن هذا حقًا؟ فكر في الأمر.

شعر (مروان) بأن الدوار يزول، أجل، هل يعقل أن تعمل (هدى) مع (هيفاء) وتدفعه إلى الصلاة والحرص على الأذكار.. مستحيل.. لو كانت تعمل مع (هيفاء) لدست له السم في المشروبات.

في استسلام دلف مع (عبد الله)، بعد ساعة أنتهى الأمر، شعر بصداع شديد لدقيقتين ثم هدأ كل شيء.

قال (عبد الله) وهو يسير بجواره عائدين إلى المكتب: تم تنقية جسدك من السحر المشروب.

جلس (مروان) على المقعد المواجه للمكتب بينما جلست (هدى) على مقعدها على المكتب وقالت: حمد لله على سلامتك.

قال: هل شفيت؟ هل انتهى الأمر؟

-كلا، مازال خادم السحر موجودًا لأنه مازال هناك مشكلة القميص، ولكن لا تقلق، إنه ضعيفٌ الآن ولن يستطيع ايذائك كا السابق.

تمتم (مروان): علي أن أعثر على هذا القميص إذًا.

ردت: أجل، بعدها تكون قد شفيت تمامًا، كيف تشعر الآن؟

-بخير.

وتطلع إلى أخوها، وقال بامتنان: شكرًا جزيلًا لك، لكما.. أنقذتما حياتي.

قال (عبد الله): قمنا بواجبنا.

ثم أستأذن وغادر.

قالت (هدى): كن حذرًا.. خادم السحر فقد الأمل في الاستحواذ على جسدك وفشل في مهمته إلا وهي جعلك تجن أو تنتحر.. لهذا سيحاول ثانية.

-سأكون بخير، شكرًا لك مرة أخرى.

قالت (هدى): لا شكر على واجب، آخر سؤال سأسألك أياه، اعدك أنني لن أتعبك بالأسئلة بعدها.

-تفضلي

-من هي (هدى)؟

.....-

***

أمتقع وجهه دفعة واحدة وتغيرت ملامحه، سرعان ما استعاد هدوئه كعادته البارعة في إخفاء مشاعره وتحييد ملامحه.

قال في براءة: أنه أنتِ، أنتِ الدكتورة (هدى).

تطلعت إليه بنظرة لوم ولم ترد، ظلت تنظر إليه صامتة فشعر بالضيق قليلًا، مضت دقيقة صمت وبدا أنه يفكر إن كان يرغب في الحديث أم لا، ثم قال: كيف عرفتِ؟

قالت باسمة: لهذا أنا طبيبة نفسية بارعة.

-ولكن كيف عرفتِ؟

-ردة فعلك البسيطة عندما سمعت أسمي، أنا أعلم بالفعل أن هناك شيء ما حدث معك منذ سنوات، فقط ربطت الأمور معًا.

-.....

-إن كنت لا ترغب في الإجابة فلا بأس، ولكن نصيحتي لك أن تعالج ثغراتك النفسية حتى لا يتمكن منك خادم السحر من جديد.

عاد (عبد الله) فتطلعت إليه اخته، فهم نظرتها فأخذ كتابًا من المكتبة، ثم قال: سأستذكر في الداخل قليلًا.

ودلف إلى الحجرة الداخلية للشقة.

غمغم (مروان): حسنًا، كانت (هدى) فتاة أحببتها في السابق، لم يقبل بها أبي، أنفصلنا وتزوجت وأصبح لديها ثلاثة أبناء.. وانتهى الأمر.

-ولكنك كنت مستعدًا لتحدي والدك شخصيًا لأجلها.

-أجل، ولكن في النهاية انفصلنا.

-فهمت.

-هل هذا كل شيء؟

-أجل،أتمنى لك الشفاء وأعتذر إن كان سؤالي قد ضايقك.

هز رأسه، وقال في تهذيب: شكرًا جزيلًا لك يا دكتورة، سأتصل بك إذا حدث شيءٌ غير متوقع.

قالت باسمة: فقط تذكر إن شعرت بالضعف أو أنك غير قادر على الاستمرار في حياتك الجديدة، تذكر أنك منحت فرصة ثانية لتغير نفسك وتعيش حياة جديدة.. تذكر أن هناك ملايين البشر يتغيرون للأفضل يوميًا وينجحون، تذكر ملايين مدمني المخدرات أو الكحول الذين تم شفائهم بالكامل بأرادتهم، أنت لست أقل منهم.

وصافح أخوها ثم غادر عائدًا إلى القاهرة.

قال (عبد الله): هل تمكنتي من علاجه؟ أقصد نفسيًا.

ردت وهي تتطلع من النافذة إلى (مروان) حيث صافح أختها الصغيرة في مرح وغادر المنزل: كلا، لا يمكنني علاج شخصٍ لايعترف لنفسه أنه مريض وبحاجة إلى العلاج.

تساءل (عبد الله) في قلق: هل يعني هذا أن السحر قد يعود أقوى ثانية قريبًا؟

ردت: ربما، ولكنني أعرف أنه سيتغلب على هذا السحر.

-أنتِ متحمسة من أجله بالذات.

-أنطباعي عن الناس لا يخطيءعادة، إنه في أعماقه إنسانٌ جيد، يحمل الكثير من الطيبة والعطف في أعماقه.. لماذا كبت مشاعره كلها أو كما وصف نفسه بأنه إنسانٌ بارد؟ لماذا أصبح لا يبالي بمشاعر الآخرين؟ هو وحده يملك الإجابة.

قال أخوها في أعتراض: لماذا أبتعد عن الطريق المستقيم وعاش حياته بلا خوف من عقاب الله؟ لا مبرر لهذا، لا أصدق أنه أهتدى بغتة هكذا.

قالت وهي تنظر إلى أخيها في رفق: أنه يرى نفسه إنسانًا سيئًا لا جدوى من إصلاحه، ثم بمجرد أن أمرته بالصلاة فعل هذا ببساطة، بعض أصناف البشر يحتاج إلى دفعة صغيرة لا أكثر.

قال أخوها: معك حق في هذا ونماذج التوبة عديدة.. وكذلك بعضهم مهما ألححنا عليه فلا جدوى من إصلاحه.

-صدقت.

***

الفصل السابع

(المرض العقلي)

أخيرًا عاد (مروان) إلى القاهرة وتحديدًا إلى شقته، كان قد اتصل ب (أم أيمن) كي تنظف الشقة قبلها بيوم فلا شك أنها شديدة الاتساخ لأنه تركها لفترة، وأخبرها أن تحصل على مفتاح الشقة الاحتياطي من (رضا) البواب.

أبتاع من البقالة العديد من الأطعمة والحليب والبيض وأشترى بعض اللحوم والخضر كذلك وبعض البرتقال والموز.

وصل إلى البناية بعد صلاة العشاء بقليل فوضع سيارته في المرآب وغادر حاملًا ما اشتراه.

نهض (رضا) ورحب به، قائلًا: حمد لله على سلامتك يا (مروان) بك.

-شكرًا يا (رضا)، خذ هذا لأجلك.

ومنحه بعض ثمرات البرتقال والموز متجاهلًا نظرات الذهول في عينيه، وصعد إلى شقته إذ لم يرى (رضا) من قبل هذا الجانب الطيب من شخصية (مروان).

دلف إليها وفتح ضوء الصالة ووضع ما يحمل على الأريكة. قال لنفسه: شكرًا يا (أم أيمن)، الشقة نظيفة حقًا.

وضع قابس الثلاجة وقام بوضع الأطعمة، ثم فتح نوافذ الحمام والشرفة وغرفة النوم للتهوية.

دلف إلى الحمام، مازالت المرآة مكسورة، عليه أن يصلحها فهو لم يعد يخشى شيئًا، قام بغلي ما تبقى معه من ورق السدر ثم أضاف مغلي السدر إلى ماء الاستحمام وأخذ حمامًا وأرتدى ثيابًا جديدة، صلى العشاء ثم أعد لنفسه بعض الشطائر وتناول الشاي.. لم ينسى أن يحضر زجاجة الشامبانيا التي يحتفظ بها ليسكبها في حوض المطبخ ثم يلقي الزجاجة في سلة القمامة والحق أنه لم يكن يعاقر الخمور إلا نادرًا.

في اليوم التالي لم يصلي الفجر ولكنه صلى بقية الصلوات ولم ينسى أن يقرأ الرقية على زجاجتي الماء قبل أن يشرب ويضع البقية في الثلاجة.. أتصل بأسرته وطمئنهم أنه سيعود خلال يومين إلى العمل بالشركة وأنه بخير. أحضر من يقوم بتركيب مرآة للحمام وصلى الجمعة في مسجدٍ قريب وراح بعض جيرانه ممن يصلون الجمعة بانتظام ينظرون إليه ويتهامسون.

في مساء اليوم التالي غادر المنزل من جديد أمام نظرات (رضا) الفضولية المتحيرة، والذي قال لنفسه بعد أن غادر(مروان): لا شك ان الأزمة القلبية واقترابه من الموت هو من جعله يتعامل بطيبة ولطف معي، لقد أتعظ وأدرك أن الموت قريب.

أما (مروان) فقد وصل إلى المقابر وكان الوقت متأخر والجو بارد، غادر السيارة والتقى بذلك الرجل الضخم الذي يرتدي الجلباب وكان له شارب ضخم يبدو أنه يعتبره من علامات الرجولة، كان بجوار الرجل امرأة بدينة ترتدي عباءة سوداء.

قال الرجل بصوتٍ غليظ: (مروان) بك.. هذه المدام و اسمها (كريمة)، نحن جاهزون.

وحمل الرجل رفش كبير وكشاف ضوء كبير وسار مع (مروان) تتبعهما المرأة.

تناول (مروان) بعض ورق المال ومنحه لحارس المقابر، الذي قال: سأغادر لأدخن في المقهى قليلًا، أنت تعرف أين القبر.

توجه (مروان) إلى داخل المقابر ثم وقف حيث دفنت (هيام).

أشار إلى الرجل كي يبدأ وبالفعل بدأ يحفر ثم لم أنتهى، قال في خشوع: الآن ستقوم (كريمة) بالبحث، حرام أن أدخل على النساء المدفونات.

كتم (مروان) ضحتكه بصعوبة، وقال: بالطبع.

عاد الرجل الضخم يقول وهو يفتل شاربه: الكفرة أولاد ال@$#^%*لولا السحر لم رضيت بهذا العمل وانتهاك حرمات الموتى و...

قاطعه (مروان) في ملل: لا بأس، ليس الأمر أننا نسرق الجثث.

هبطت المرأة في جرأة غريبة إلى حجرة دفن النساء وكان العدد بالداخل ثلاثة فقط وكان الحارس قد أخبره أيهن (هيام).

بعد عشر دقائق، قالت المرأة: لا يوجد شيء يا بك، لا قمصان، ولا أي شيء، فقط الكفن.

منح المرأة والرجل حفنة من الأموال، ثم لما غادروا، وقف قليلًا، ظل واقفًا لدقيقتين بصمتٍ ثم استدار مغادرًا ولكنه توقف.. عاد يغادر ثم توقف، ثم عاد إلى حيث القبر، ثم قال: أنا آسف، أنا آسف يا (هيام)، أنا أشعر نوعًا ما بالامتنان لشقيقتك، فلولا ما فعلته بي لما كنت تغيرت، لما أعتذرت، لأكملت حياتي كما أنا، أعلم أن أوان الاعتذار قد فات وأنه بلا جدوى ولكنني لا أملك سواه الآن.

ثم استدار منصرفًا وغادر المقابر، كان الرجل والمرأة ينتظران عند سيارته، وقال الرجل: أي أوامر يا بك؟

قال (مروان): سأتصل بك قريبًا.

وركب سيارته وأنطلق بها، أتصل ب (ناجي) محامي الأسرة، وقال : مرحبًا أستاذ (ناجي) أعتذر عن الاتصال في هذا الوقت المتأخر ولكن هناك شيئًا أريد منك أن تعرفه ورجاءً لا تخبر والدي هذه المرة، هناك طفلة ماتت منذ شهرين وأسبوع تقريبًا.. سأرسل لك التفاصيل عبر الواتساب بمجرد عودتي إلى المنزل، سأبحث عن الخبر عبر الانترنت، أريد منك أن تعرف أين دفنت بالضبط؟ هذا أمرٌ ضروريٌ للغاية.

***

بعد أن أنهى الأمر مع المحامي أرتدى منامته، وقام بحلاقة ذقنه في مرآة الحمام وغسل أسنانه، دلف إلى سريره وتدثر بالأغطية واستعد للنوم حينما جاءته رسالة على الواتس، إنها من (مها)، كانت تطمئن عليه، شعر بالضيق، جلس على السرير وأرسل لها:" أشكرك لأهتمامك، أنا بخيرٍ الآن.. أنا أغير أشياء كثيرة في حياتي ولهذا أعتذر عن عدم قدرتي على التواصل معك بعد الآن".

أرسل الرسالة ثم قام بالولوج إلى حسابه على الفيس فأغلقه وقام بإلغاء معظم من معه على الواتس باستثناء أسرته ووضع هاتفه بجوار السرير، سيبدأ من جديد وسينجح، سوف ينام الآن ولكنه سيستيقظ لصلاة الفجر، ستقتصر علاقاته في مواقع التواصل الاجتماعي على أسرته فقط وبعض معارفه.

تدثر بالأغطية من جديد وراح في النوم، أستيقظ بالفعل لصلاة الفجر وكان يفتح عينيه في صعوبة ولكنه تحامل على نفسه،

أنهى الصلاة ثم عاد إلى السرير، مع شروق الشمس وبينما يغرق في النوم شعر بتلك الحركة في الحجرة ففتح عينيه.

أضاء المصباح بجوار السرير ونظر إلى باب الحجرة.. كان هذا جديدًا، لم يرى من قبل أشياء في وضح النهار، بل كان هذا يحدث عادة بالليل، كانت الطفلة تقف على باب الحجرة، تحمل لعبة على شكل أرنب وتتطلع إليه، تحمل الكثير من ملامحه.. جميلة وبريئة كأي طفلة في الخامسة من العمر.

تنفس بعمق كي يهدأ، لم تعد تلك الرؤى تخيفه وتثير فزعه كالسابق.

قال بصرامة: لا جدوى من هذا الحمق، أرحلي فأنتِ وهم.

بدا القلق على وجه الطفلة، وقالت بصوتها الرفيع الرقيق: بابا، أريد أن أنام بجوارك.

صاح وهو ينهض: أرحل عليك اللعنة.. أنت وهم.. وهم.

أجفلت الطفلة من الصوت المرتفع، بدت كأنها على وشك البكاء، ثم انفجرت في البكاء بالفعل، وقالت وهي تركض للخارج:

لن أكلمك ثانية.

زفر (مروان) ثم نهض.. مازال الوقت مبكرًا ولكنه لن يستطيع العودة إلى النوم.. أرتدى خفيه ثم توجه إلى الحمام وهو يتثاءب.. توجه إلى المطبخ لإعداد إفطارٍ سريع وقام بتسخين المياه في براد الشاي تمهيدًا لإعداد النسكافيه، فتح الثلاجة ثم توقف وتطلع إلى محتواها في حيرة.. هناك شيكولاته وهناك عدة علب حليب بالفراولة وحليب بالتمر وحليب بالشيكولاتة

..متى قام بشراء تلك الأشياء.. ترى هل قام أخوه بالقدوم وشراء تلك الأشياء ووضعها في الثلاجة؟ تناول بيضتين وأخرج الخبز.. خبز الفينو!! إنه لا يحبه فلماذا يقوم أخيه بشرائه؟ هاهو ذا التوست.

بدأ يعد الطعام ويضعه في طبق، بعض الجبن والزيتون.. عاد إلى الصالة فوضع الطعام وجلس كي يأكل، ظهرت الطفلة من جديد.. كانت تبدو حزينة حقًا.. تمتمت وهي تنظر أرضًا رافضة النظر إليه: أنا جائعة.

زفر في ضيق، وقال في غيظ: لن تخدعني هذه المرة.. لحظة.

بدأ يقرأ الرقية وهو ينظر إليها في تحدي.، قرأ الفاتحة.. أرني كل ما لديك أيها الشيطان، الآن سيكمل الرقية، سيبدأ بسورة الإخلاص.

هنا أرتفع جرس الباب، أبتسم (مروان) في تشفي، لا أحد يرى الأوهام سواه بدءً بالمشنقة وانتهاءً بالطفلة.

نهض يفتح الباب وهو يتساءل عمن يطرق الباب في هذا الوقت المبكر، الساعة الآن السادسة صباحًا.،كان هذا (رضا) وقد

بدا متضايقًا، وهو يغمغم: وجدت جميع البقالات مغلقة يا بك، أضطررت إلى السير لمسافة طويلة حتى وجدت بقالة مفتوحة ل24 ساعة.. هاهي الجبنة وفي الكيس الفاتورة وبقية المال.

قال (مروان) في حيرة وهو يتأمل وجهه المكفهر: أي جبنة؟ هل جننت؟

ناوله (رضا) الكيس، وقال: الجبنة التي طلبت مني إحضارها قبل السادسة صباحًا حتى تأكل منها الهانم الصغيرة.

شحب وجه (مروان) وهتف في توتر: أي هانم صغيرة؟

-(ندى) هانم ابنتك يا بك.

استدار (مروان) إلى حيث وقفت الصغيرة في الصالة تتأمله في قلق، وهتف في ذعر: (رضا)، هل تستطيع رؤيتها؟

وأشار إليها، بدا القلق على (رضا) وقال في حذر: هل أنت بخير يا بك؟ هل أتصل ب (خالد) بك أو (محمود) بك؟

قال (مروان) في عصبية: سألتك، هل تراها؟

-بالطبع يا بك، صباح الخير يا (ندى) هانم.

ردت (ندى) وهي تبتسم: صباح الخير يا عمو (رضا).

هتف (مروان): أنت تكذب.

قال (رضا): سامحك الله يا بك، سأتصل ب (خالد) بك كي...

قاطعه (مروان):هل تآمرت علي؟ كم دفعوا لك يا (رضا)؟

تراجع (رضا) إلى الوراء دون كلمة، ثم هبط إلى الطابق الأرضي.

أغلق (مروان) باب الشقة بقوة وألقى بالكيس على الأريكة واستدار نحو الطفلة فلم يجدها، راح يبحث عنها في إصرارٍ وهو يتساءل كيف رأها (رضا)، غير معقول، إما أن (هيفاء) قد سحرته أيضًا وهو استنتاج غير معقول وغير منطقي أو أنها دفعت له كي يتعاون معها.

تجمد (مروان) وهو يقف على باب حجرة الضيوف، كانت تلك الحجرة في السابق بها سرير قديم ومكتب لا غير، أما الآن إذ ينظر إلى الحجرة حيث وقفت الطفلة وجد الحجرة مختلفة تمامًا.

لون الحائط أبيض ووردي مع ملصقات لأميرات ديزني.. سرير على شكل قصر خيالي أيضًا له لون وردي ودولاب أمتلأ بصور الشخصيات الكرتونية.. مكتب صغير وكرسي، الدمى والألعاب على شكل دببة وأرانب في كل ركن، هذه حجرة طفلة تعامل كالأميرة، هل هذا وهم؟

شعر بالصداع فوضع يده على صدغه في قوة، قالت الطفلة: سأرتدي ثياب الحضانة بابا.

هتف في حدة: لن أخرج معك إلى أي مكان.

ثم غادر الحجرة وجلس في الصالة مذهولًا يفكر، طعام الإفطار قد برد، صوت صافرة براد الشاي يرتفع معلنًا غليان الماء، رأسه سينفجر، هذا وهم، وهم قوي لدرجة تجعله يرى حجرة الضيوف متغيرة كليًا.

أرتفع جرس الباب من جديد، نهض في تثاقل وفتح الباب ليجد أخوه واقفًا وقد بدا قلقًا.

دلف (خالد) إلى داخل الشقة دون كلمة وفتح ذراعيه ليحتضن الطفلة أمام عيني (مروان) المذهولتين، قبلها وراح يمازحها قليلًا، ثم قال باسمًا: أذهبي حبيبتي لتلعبي في حجرتك قليلًا، لن نذهب اليوم إلى الحضانة.

وهمس في أذنها: لا تقلقي، سأعطي بابا الدواء وسيكون بخير.

أنسحبت الصغيرة إلى حجرتها في تثاقل، وجلس (خالد) أمام (مروان)، ثم قال بلهجة حادة لم يعتاد أن يخاطب بها أخوه الكبير: هل توقفت عن تناول الأدوية؟

تمتم (مروان): أي ادوية؟ تلك الطفلة وهم، وأنت.. أنت أخي، كيف تتآمر مع تلك الحقيرة؟

قال (خالد) بصرامة: أفق لنفسك، لقد تعبت أنا ووالدي ونحن نعالجك، عامًا كاملًا وأنت محجوزٌ في المصحة.. بذلنا قصارى جهدنا وتذللنا ل (هيفاء) حرفيًا حتى لا ترفع عليك قضية وتنزع منك حضانة (ندى).

-م.. ما.. ما الذي تقوله؟

-هل نسيت أن (هيفاء) خالتها؟ أي قاضٍ هذا سيترك لرجلٍ مريض عقليًا حضانة طفلة، تعرف أنها أقسمت إن لم تلتزم بالعلاج وترعى الصغيرة جيدًا فستأخذها منك.. هل هذا ما تريده يا (مروان)؟ هل تريدها أن تأخذ ابنتك التي تحبها من كل قلبك؟

تجمعت دموع الحيرة والحزن والغضب في عيني (مروان)، وهو يقول: ابنتي قد ماتت.. توقفوا عن هذا.. كفوا عن تعذيبي.

تنهد (خالد) ونهض إلى حجرة نوم اخيه ثم عاد ومعه كيس مليء بالأدوية.. ناوله عدة أقراص وكوب ماءٍ كبير، وقال في رفق: تناول أدويتك.

-كلا، أنا لست مريضًا.. أنت متآمر مع (هيفاء).. هل السبب هو الميراث؟ هه.. إدارة الشركة!؟

وضع (خالد) الأدوية على الطاولة، وقال مشفقًا: تعالى معي إلى الفيلا، فلتبقى معنا ليومين أو ثلاثة، ما رأيك؟ اشتاقت ماما إليك وإلى (ندى)، بابا كذلك، هيا أنهض وأرتدي ثيابك أم أنك تظن الآن أن والديك متآمران ضدك كذلك؟

-.....

***

هتفت (ميرفت) في حرارة وهي تحتضن (ندى) في شوق: حبيبة تيتة، اوحشتني، أوحشتني يا قمر، يا روحي.

وغمرتها بالقبلات، ثم قبلت وجنة (مروان) في حنان وقد بدت قلقة.

جلس (مروان) على إحدى مقاعد الصالة فجلست (ندى) بجواره تحدق فيه بقلق وأهتمام، أختلس النظر إليها صامتًا، مستحيل أن تكون وهمًا ويراها الجميع ويتعاملون معها كحفيدة وابنة أخ بشكلٍ تلقائي.

قالت (ميرفت) في لوم وهي تأخذ الصغيرة من يدها: لم تتناول إفطارها حتى الآن.. هيا يا حبيبتي، أعددت لك إفطارًا شهيًا.

وغادرت مع (ندى) إلى حجرة الطعام المفتوحة على الصالة حيث المائدة.

جلس (خالد) بجواره، وقال: هل أطمئننت الآن؟ هل ستتناول الدواء؟

تطلع (مروان) إلى أخيه، رغمًا عنه شعر برغبة في البكاء ومنع دموعه بصعوبة من التساقط ولكنه لم يستطع أن يمنع صوته من التهدج، وهو يتمتم: أخبرني كل شيء، فأنا لا أذكر شيئًا.

تنهد (خالد) وقال: هذا لأنك لم تنتظم في الأدوية، أنت تعاني من البارانويا، ظهر المرض فجأة منذ عام، كنت تصر على أن

أبنتك ماتت وهي رضيعة وأن (هيام) رحمها الله قد أنتحرت لأنك لم تتزوجها.. كنت غريبًا وفي حالة مخيفة وتخرف بأحداث وأشياء لم تحدث، رحت تتهم (هيفاء) كذلك بأنها سحرتك، أغضبها هذا كثيرًا، في النهاية تم حجزك في المصحة.. ظللت فيها عامًا حتى شفيت وخرجت وعدت لابنتك وكنت على مايرام، لكن الأطباء قد حذروك، إذا توقفت عن تناول الأدوية فسيعاودك المرض.

تساءل (مروان): وكيف عرفت أنني مريضٌ اليوم؟ لقد جئت إلي اليوم صباحًا.

-أتصل بي (رضا) حارس العقار، لقد أخبرناه أن يفعل إذا لاحظ عليك المرض، بصراحة أنت عنيدٌ جدًا، رفضت بأصرار ألحاح والدينا على بقائك معنا تحت رعايتنا هنا في الفيلا، لا أفهم لمَ تحب البقاء وحدك في شقة مستقلة؟ هل تظن نفسك تعيش في أوروبا أو امريكا؟

وأمسك يد (مروان)، وقال محذرًا: (ندى) هي حياتك يا (مروان).. أنا لم أرى في حياتي أبًا يحب ابنته مثلك.. لا تتهاون أو تستخف بمرضك.. قد تؤذي ابنتك أو تفقد الوصاية عليها.

حدق فيه (مروان) واستدار ينظر جهة الطفلة التي جلست تأكل وتمزح مع (ميرفت)، ثم تمتم: هل تعني أن كل ما مررت به في الفترة السابقة كان وهمًا؟

-بالطبع.. لا شك انه المرض.

-أنا إذًا تزوجت (هيام)؟

-اجل، أعترض والدك وطردك من الشركة ولكنك تزوجتها برغم ذلك.. رحمها الله.

-وكيف ماتت؟ أنا لا أذكر.

-ماتت بعد مولد الطفلة بثلاثة أيام.. فجأة أصيبت بنزف ولم يستطع الأطباء إنقاذها.. يومها كنت منهارًا، أيضًا قرر بابا بعدها أن يسامحك ويعيدك إلى الشركة ويتقبل (ندى).

سالت دمعة من عيني (مروان) رغمًا عنه فمسحها بيده سريعًا.. كان هذا كثير للغاية.. لم يعد يدري.. هل هو مريض عقلي أم مريض بسبب السحر؟ هل أبنته حية أم ميتة؟ هل أنتحرت (هيام) أم ماتت بشكلٍ عادي؟

هتف فجأة: مهلًا، (خالد)، ماذا عن الدكتورة (هدى)؟

رد (خالد): ماذا عنها؟

-أنت تعرفها!! إذًا هي ليست وهم.

-أنها الطبيبة التي كانت ترأس فريق علاجك، ماذا عنها؟

-إنها التي عالجتني من السحر.

-سحر؟!

-أجل، إنها طبيبة نفسية ومعالجة سحر في نفس الوقت.

قال (خالد) في ضيق: هل تسمع نفسك؟ طبيبة ودجالة في نفس الوقت!! هل يبدو لك هذا منطقيًا؟

-.....

-إنه عقلك، ذلك المرض يجعلك تخلط الواقع بالخيال وتصدق الأوهام.. (مروان) رجاءً خذ الأدوية وستشعر بالتحسن.

-حقًا؟ دعني أتصل بها إذًا.

وأخرج هاتفه وراح يطلبها وهو ينظر إلى أخيه في تحدي. ظهر (محمود) هابطًا من الطابق الثاني، فتوجه نحو (مروان) قائلًا: مرحبًا بني.

أشار إليه (مروان) بيده أن يصمت.. تطلع إليه (محمود) مذهولًا وغاضبًا ثم نظر إلى (خالد) الذي هز رأسه ولم يعلق.

"الهاتف الذي تطلبه مغلق أو غير متاح".

حاول (مروان) ثانية وثالثة دون جدوى.

قال (خالد) في وجوم: الدكتورة قد سافرت إلى مؤتمر طبي في الأردن ولن تعود قبل أسبوعين، لهذا هاتفها مغلق.

هتف (مروان): سأذهب إلى بيتها في بنها إذًا.

تساءل (محمود) في ضيق: ماذا يقول أخوك؟

ثم أحتضن (ندى) التي قفزت إلى صدره في حماس وهو يبتسم قائلًا: مرحبًا ب (ندى) الحلوة.

هتفت وهي تقبله: مرحبًا جدي.

قال (خالد): إنها تسكن في القاهرة في ألف مسكن، عما تتحدث؟ لا يوجد أطباء في بنها.

تأمل (مروان) الوجوه المحدقة فيه بقلق.. شعر بالصداع، فتمتم: أشعر بالصداع.

قال (محمود): لأنك لا تتناول الأدوية، أعرف أنها تتعبك ولكنها ضرورية يا بني.

مد أخاه يده بالأدوية إليه..تردد للحظة، فقال (محمود) بصرامة: خذ أدويتك هيا، وأياك ان تهملها ثانية.

ثم تناول الأدوية وناولها ل (مروان) الذي أبتلعها.

***

لطالما تساءل (مروان) أي نوع من الاباء سيكون.. الآن يذكر عندما كان أصغر سنًا وكان والده يقسو عليه كان يقسم أنه لن يفعل هذا أبدًا بأبنائه عندما يكبرويصير أبًا.. لم يكن والده وحشًا كاسرًا أو رجلًا شديد القسوة، لكن كونه رجل أعمال يدير شركة كبرى، إضافة إلى طبيعته الصارمة المستبدة قد جعلته يتصرف مع أبنائه بشيءٍ من القسوة والحدة من وقتًا لآخر.. مضى اليوم، وفي المساء أعلنت (ندى) أنها ستنام بجواره.. لم يعترض فقد كان بحاجة إلى التقرب منها، وإذ دفنت قدمها الباردة الصغيرة في قدمه كي تدفئها ودست نفسها داخل صدره تحت البطانية شعر (مروان) بشعورٍا غريب يجتاحه.. تأملته باسمة وفي عيونها حب وأنبهار شديد.. إنها كأي طفلة تتمتع بتدليل وحنان الأب، تظن أن والدها مخلوقٌ أسطوري لا يقهر.

قالت باسمة: أحكي لي قصة.

أنه لا يجيد هذا، حاول أن يتذكر أي قصة من أي فيلم كرتون، ثم قرر أن يحكي لها قصة ذات الرداء الأحمر.. هل يعقل أن هذا وهم؟هل هو حقًا مريض عقلي؟ لم يعد يدري.

في اليوم التالي عاد إلى منزله مع (ندى)، راحت تشاهد أفلام الكرتون على التلفاز وقد أجبرته على الجلوس معها ومتابعة الفيلم، الفيلم اسمه (تشابك) ويحكي عن قصة الأميرة رابنزل ذات الشعر المسحور الطويل جدًا والتي أختطفتها الساحرة الشريرة من أجل شعرها.. الغريب أنه استمتع بالفيلم.. لم يجرب من قبل مشاهدة أفلام الكرتون وكان دائمًا يحسبها موجهة للأطفال فقط ولكنه الآن يكتشف أن هذا غير صحيح.

في المساء وضعها في فراشها ووجد في مكتبها عدة قصص أطفال، جعلها تنتقي إحداها كي يقصها عليها ولما نامت نهض بحذر فغسل أسنانه ووجهه.. تأمل وجهه في المرآة، تأمل نظرة السعادة في عينيه وابتسامة الرضا وهو يتذكر ابنته التي قام بلفها بالبطانية لفًا.. يبدو أنه أبٌ رائع من النوع العطوف المتفاني وليس من تلك الأنواع اللعينة المنتشرة اليوم اللامبالية أو القاسية أو الأنانية والتي كان يظن أنه ينتمي إليها.

وجد لديه ألبوم صور في الحجرة فراح يتأمل الصور.. لقد تزوج (هيام) حقًا.. صحيح أنها صورة واحدة لها بثوب الزفاف الأبيض وقد تأبطت ذراعيه ولكنها دليلٌ كافٍ، بقية الصور تجمع بينه وبين ابنته في مراحل مختلفة، هناك صور عدة على الحاسوب وعلى الهاتف كلها تدل على أهتمام بالغ منه بطفلته في مراحل عمرها المختلفة، هناك صورة التقطت له وهو يغير لها الحفاضة وقد وضع على أنفه كمامة طبية.. جعلته الصورة يضحك.

حينما نام في سريره وأستغرق في النوم وحان موعد صلاة الفجر نهض يغلق منبه الهاتف، ثم عاد لينام قليلًا وبعدها نهض ليصلي، في الصباح أعد إفطارًا شهيًا ووضع كوب حليب بالتمر ل (ندى)، ثم أوصلها إلى الحضانة الراقية، وعاد إلى المنزل ليعد الغداء.. أخبره والده أنه لم يعد يعمل في الشركة بسبب حالته العقلية، فقط يرسلون له الأوراق عبر البريد الالكتروني كي يبدي ملحوظاته أو يقبل أو يرفض بعض الصفقات.. إنهم يحاولون عدم جرح مشاعره، من الواضح أنه غير قادرٍ على العمل، ذهب ليحضر ابنته من الحضانة فركضت نحوه وقفزت تحتضنه في حبٍ شديد.. راحت تثرثر في طريق العودة إلى المنزل وتحكي له ما حدث معها في الحضانة وما تعلمته.. ساعدها على تغيير ثيابها شاعرًا بالفخر من كونه أب.. أنتقى معها المنامة التي تريد، وجميع مناماتها عليها نقوش طفولية وذات ألوان وردية وحمراء وبنفسجية.. الألوان المفضلة لدى البنات عمومًا.

جلست تشاهد الكرتون بينما استلقى هو على الأريكة بجوراها ونام قليلًا، ولكنه شعر بيدها الصغيرة تهزه وصوتها يقول في الحاح: بابا، هيا لنصلي العصر.

تطلع إلى ساعة الحائط، وغمغم: هل أذن؟

-منذ قليل.

نهض وتأملها وهي واقفة، ثم قال باسمًا: هل علمتك الصلاة؟

-أجل.

-هيا نتوضأ.

توضأ معها وهو يراقبها بشغف.. أسرعت ترتدي إسدال صغير أحمر اللون عليه بعض النقوش العربية بجمل لا معنى

لها. صلت معه بالفعل وبعدها تناولا الغداء معًا.. لم يعد يشعر بالوحدة كالسابق والأهم أنه لم يعد يهتم بالفتيات أو النساء، أصبحت تلك الصغيرة الرائعة هي محور أهتمامه.. ساعدها في عمل الواجبات.. غدًا هو آخر يومٍ في الحضانة وبعدها أجازة لمدة شهر.

قالت (ندى) أنها سعيدة، يبدو أنها مثله لا تحب الدراسة كثيرًا برغم أنه لاحظ أنها ذكية وسريعة التعلم.

في المساء تناولا العشاء وحكى لها قصة ودثرها بالبطانية ثم نام في حجرته ولكنها بالطبع جاءت بعد الفجر بقليل وأعلنت أنها ستنام معه.. دفنت رأسها الصغير في صدره ودفنت قدمها الباردة الصغيرة في قدمه الدافئة ونامت.

كان شعور الأبوة في البداية له رهبة ثم أصبح يحبه كثيرًا.. صحيح أنه كان يشعر بالإرهاق والتعب لأن (ندى) كانت أحيانًا تصر على أن يلعب معها والدها لأثنتا عشرة ساعة متواصلة دون مللٍ أو كلل ولكنه كان يحب هذا.. الحمد لله أنه مريض عقلي.. لا يمانع أبداً.. هذا افضل بكثير من فكرة أن يكون سليمًا وأن ابنته في الواقع قد ماتت رضيعة، هذا السيناريوا أفضل من الآخر الذي ألقيت فيه في صندوق القمامة وشنقت فيه (هيام) نفسها، ثم هذا التغير الجذري في طبيعته.. لم يعد وغدًا مستهترًا بمشاعر الأخريات الآن وقد أصبح أبًا لطفلة ستصير فتاة ناضجة مليئة بالعاطفة يومًا ما.

أعتاد أن يزور والديه وأخيه ثلاثة أيامٍ في الأسبوع وأن يبيت أحيانًا وأن يراقب (ندى) وهي تلعب في حديقة الفيلا مع أبناء اخيه (أسراء) و(محمود).

وذات يوم قامت (ندى) بعمل حفلة كبيرة، وضعت الدمى على المقاعد ووضعت فناجين الشاي والقهوة البلاستيكية والأطباق والملاعق والشوك وجلس (مروان) أمامها فناولته الطبق الفارغ، وسألت بلهجة جادة جعلته يبتسم: هل تريد شاي أم قهوة يا سيدي؟

-شاي من فضلك.

ناولته الفنجان الفارغ فتظاهر بأنه يأكل ويشرب، وقالت (ندى) وهي تفعل المثل: نحن اليوم مجتمعون لأننا سنناقش أمرًا

هامًا جدًا.

-وماهو؟

-هل يجب على بابا أن يتزوج كما قال جدي؟

تأمل (مروان) ملامح الصغيرة الرائعة القلقة قليلًا والتي تحاول محاولات طفولية التظاهر بعكس هذا.

قال بحسم: كلا.. بابا لن يتزوج أبدًا، وسيعيش هو و(ندى) مع بعضهم للأبد حتى تكبر وتتخرج وتصبح طبيبة تعالج المرضى وتعالج بابا شخصيًا.

تهللت أساريرها وقد أسعدها هذا الرد كثيرًا وقالت: أجل، لسنا بحاجة إلى أحدٍ معنا.

***

الأمطار تتساقط.. يحدث هذا أحيانًا في نهاية شهر فبراير وقد أدرك (مروان) أن ابنته ستأتي الآن إلى حجرته معلنة رغبتها في النوم بجواره ومتحججة ببرودة الطقس وقد كان، وقالت وهي تدفن رأسها في صدره كعادتها: بابا، أريد أن نذهب غدًا إلى السينما لمشاهدة فيلم الكرتون (...) الجديد.

-حسنًا.

ولكن الأمطار تساقطت من جديد في اليوم التالي وكانت زخات خفيفة ومع ذلك أصرت (ندى) على الذهاب إلى السينما بل والسير إلى هناك.

هناك مول شهير قريب به سينما تعرض الفيلم، هكذا ألبسها (مروان) ملابس ثقيلة وفعل المثل وأحضر المظلة الكبيرة وسار معها.. كانت تسير الهوينى وهي تنظر إلى قدميها بأهتمام وقد جذب انتباهها كيف يتطاير الماء حول قدميها أثناء السير.

أبتسم (مروان) وهو يراقبها ويحرص على وضع المظلة فوقها، من حسن الحظ أن الأمطار ليست غزيرة.

وصلا إلى المول ودلفا، ابتاع (مروان) تذكرتين للفيلم وابتاع علبة بوشار كبيرة وعلبة مياه معدنية وجلس بجوارها في صالة العرض التي كان عدد الحضور فيها قليل وأغلبهم من الأسر مع أطفالهم، فكر (مروان) في أن الطفلة سوف تصل لسن المراهقة يومًا ما وستحتاج إلى وجود أمٍ في حياتها.. لا شك أنها تفتقد إلى وجود الأم الآن وهو مهما لعب دور الأب أو حاول منحها كل الحنان فسيظل عاجزًا عن تعويض وجود الأم.

ربت على رأسها فجأة فتطلعت إليه وقبلها في جبينها.. لا يريد أن يحضر لها زوجة أب.. لن تحبها بنفس قدر حبها لأبنائها الذين ستحملهم في رحمها وتنجبهم، سيظل معها لوحده، وسيحاول جعل والدته (ميرفت) تلعب دور الأم بشكلٍ ما.

عرض الفيلم وراح يحاول ترجمته لها فهي لا تجيد القراءة بعد.

بعد الفيلم تناولا الغداء في مطعمٍ قريب نظيف وأشترى لها كل ما طلبت ثم عادا معًا إلى المنزل، صلى المغرب معها ثم تركها تلعب مع الدمى في حجرتها بمرح..

في نهاية الأسبوع ذهب مع أسرته إلى مدينة الملاهي وإذ جلس يراقب (ندى) في قلق، قال (خالد):

لاتقلق.. هذا القسم لألعاب الأطفال، ثم إن (أسراء) و(محمود) سيعتنيان بها.

كان الثلاثة يلعبون في مرحٍ شديد، بينما جلس (مروان) مع والديه وأخيه وزوجة أخيه على مائدة في الكافيتريا يراقبونهم.

قال (محمود): هل تتناول أدويتك بانتظام؟

-أجل.

-هذا جيد.. لا تنسى أن (هيفاء) ستأتي زيارة لمصر بعد أسبوعين وستمكث شهرًا.. يجب أن تراك في حالة صحية جيدة.

أقشعر بدنه حينما ذكر والده اسم (هيفاء)، ربما لهذا كان يتوهم أنها سحرته، لأنها في الواقع تضايقه وتتدخل بينه وبين صغيرته.. كان ينتظم في الدواء رغم أنه يجعله يشعر بالغثيان وبالإرهاق أحيانًا.

هتفت (أسراء): ماما.. بابا.. عمو.. أنظروا إلينا.

كانوا يركبون اللعبة المسماة الساقية أو العجلة الدوارة وراحت زوجة أخيه تلتقط لهم الصور وهم يلوحون ثلاثتهم في مرح.

طلب (محمود) الغداء وجلست (ندى) على قدمي والدها الذي راح يأكل ويطعمها معًا، وبصفة عامة كان يومًا جميلاً جدًا.

في المساء قام بتغطيتها بالبطانية جيدًا وقص عليها قصة العصفور التي تفضلها، ثم دلف إلى حجرته لينام.

الآن فقط يشعر بنعمة الأبوة.. لقد مر شهر عليه وهو يلعب هذا الدور، شهر ملكت فيه تلك الطفلة قلبه بكل جوارحه.

غرق في النوم وقبل الفجر بساعة سمع صوتها: بابا.

أستيقظ باسمًا.. تقف على باب الحجرة كي تأتي لتنام بجواره، إنها تفعل هذا دائمًا.. ربما عليه أن يغلق حجرتها وينقل سريرها إلى حجرته، وهكذا يشتركان في الحجرة ويريحها من عناء التنقل يوميًا.

رفع البطانية وأشار إليها متمتمًا : تعالي بجانبي.

لكنها لم تأتي، عادت تغمغم: بابا، الجو بارد.

-أجل يا أميرتي، تعالي بجواري.. سأدفئك جيدًا.

-بابا.. أشعر بالبرد.

نهض وتطلع نحوها، ماذا بها؟ لماذا تقف في مكانها؟

تساءل في قلق وهو يغادر الفراش: هل أنتِ مريضة حبيبتي؟

تحركت في بطء.. أضاء المصباح بجوار السرير، هناك صوت قطرات ماء يتساقط، أتسعت عيناه وهتف: أنتِ مبتلة.

ونهض مسرعًا نحوها، وصاح: هل تمطر بالخارج؟ هل كنتِ في الشرفة؟ كيف فتحتها؟

جذبها نحوه وهاله أنها باردة جدًا، أسرع يجذب البطانية ولفها حولها، وهو يغمغم في ذعر: أنتِ باردة جدًا.. لمَ أنتِ مبتلة هكذا؟

تمتمت في ضعف: إنها تمطر.

الإضاءة خفيفة ومع ذلك لاحظ أن وجهها وأطرافها مزرقة. هتف في هلع وهو يحتضنها بقوة: سنذهب إلى المستشفى

حالًا.. لماذا غادرتي إلى الشرفة؟

شعر بشيءٍ ساخن يلامس جسده.. تساءل إن كانت قد تبولت على نفسها.. نهض ليفتح ضوء الحجرة ثم عاد إليها وأنحنى بجوارها، يشعر بأن رأسه سينفجر، قلبه يخفق بهلع والخفقات تضرب رأسه، تساقطت دموعه تلقائيًا لأن السائل الساخن كان دمًا.. دماء ساخنة ثخينة أغرقت ثيابه والبطانية بينما الفتاة تغلق عينيها ويزرق لونها أكثر وأكثر.

صاح في جنون: لماذا تنزفين يا (ندى)؟ لماذا؟.

مدت يدها تتحسس وجنته ثم تمسح الدموع، تمتمت: هذا لأن الكلاب أكلتني.

-.....

-لماذا؟ لماذا تركت الكلاب تأكلني؟

-أ.. لا...

-لماذا تركتني في البرد والمطر؟ في صندوق القمامة؟

ثم شهقت شهقة معذبة وشخصت عيناها العسليتان اللتان تشبهان عينيه، لقد ماتت بين ذراعيه.

وفي الطابق الأرضي أنتفض جسد (رضا) في ذعر واستيقظ على صوت البكاء والصراخ الصادر من شقة (مروان)، كان الصوت مرتفعًا جدًا ومريرًا حتى أنه وصل إليه. غمغم في ضيق: لقد جن (مروان) بك ثانية.

***

مع بدايات شهر مارس خفت برودة الطقس بشكلٍ كبير، كانت (هدى) تحب هذا الشهر والشهران التاليان له.. بالنسبة لها فإن الطقس في هذا الوقت يكون أجمل ما يمكن لوتغاضينا عن الأتربة ورياح الخماسين، ومع إشراق الشمس في الصباح الباكر وبينما وقفت والدتها وأختها الصغيرة يعدان طعام الغداء في المطبخ وذهب أخويها كي يلعبا الكرة في الشارع الخلفي مع بعض الجيران، جلست (هدى) في ساحة البيت تقرأ كتاب ابن القيم (الطب النبوي) بأهتمام ثم أرتفع صوت هاتفها المحمول من داخل البيت وأسرعت اختها الصغيرة تحضر لها الهاتف الذي توقف عن الرنين.

غمغمت (هدى) شاكرة وربتت على رأس شقيقتها، ثم تطلعت إلى المتصل وأرتفع حاجباها في دهشة.. كان المتصل هو (مروان)، متأخر في الواقع فقد توقعت أن يتصل بها خلال أسبوع من عودته إلى القاهرة كي يخبرها بما فعل بشأن القميص ولم تتوقع أن يتصل بعد مرور أكثر من شهر، كانت قد ظنته أنهى مشاكله ونسي كل شيء عنها.. لم يكن هذا جديدًا في الواقع، أغلب مرضاها لا يتصلون بعد شفائهم.

أرتفع صوت الهاتف من جديد فضغطت زر الرد، وقالت: السلام عليكم.

جاءها صوتٌ مختلف، لم يكن صوت (مروان) بل صوت والده (محمود)، قال في حذر: دكتورة (هدى)؟

-أجل.

-أنا (محمود) والد (مروان) الذي كان يعالج لديك في شهر يناير.

-أجل، مرحبًا، وكيف حال (مروان)؟

-إنه في حاجة ماسة لرؤيتك، سأرسل لك سيارة خاصة تأتي بك إلى القاهرة، ستصل إليك خلال ساعة أو ساعتين على

الأكثر، يمكنك اصطحاب من تريدين معك.

-ولماذا يحتاج أستاذ (مروان) إلى رؤيتي؟

-أنت طبيبته النفسية، أليس كذلك؟ إنه نزيل في مصحة (...) للأمراض النفسية والعصبية، الدكتور (...) صاحب المصحة شخصيًا قد وافق على السماح لك بالمشاركة في علاجه والقدوم لرؤيته.

-فهمت.

وانهت المكالمة شاعرة بالحيرة الشديدة، ترى ماذا حدث معه؟

بعد ساعة وصلت السيارة وكان يقودها السائق وبجواره جلس (خالد)، جلست مع أخوها (عبد الله) في المقعد الخلفي وأنطلقت السيارة.. كان أخوها سيعود إلى القاهرة على أية حال الليلة من أجل الدراسة.

قال (خالد) معتذرًا: أسف لأننا قمنا بجرك إلى القاهرة بهذا الشكل المفاجيء، ولكن حالة (مروان).. آه.. إنه بحاجة إلى مساعدتك يا دكتورة.

غمغمت: لا عليك.. هذا واجبي اتجاه مرضاي.

وتطلعت إلى ملامح (خالد).. يبدو أنه شفي من شعور الغيرة اتجاه أخيه، لم يعد أخوه يثير سوى الشفقة والعطف كما هو واضح.. أشعرها هذا بالقلق.

قالت: لمَ لا تخبرني بكل ما حصل معه؟ أريد ان أشخص كل شيء قبل وصولنا إلى القاهرة.

قال (خالد): بعد عودته من بنها إلى شقته ولمدة أربعة أيام كان بخير.. إتصل بنا وكان على وشك العودة إلى الشركة، بل قال (رضا) البواب أنه رأه يصلي الجمعة في المسجد، ثم في اليوم السادس لم يظهر في الشركة ولم يغادر شقته، قلنا لأنفسنا أنه ربما مازال مرهقًا فلنتركه ليومًا آخر، ولكنه كذلك لم يصل إلى الشركة في اليوم التالي ولم يجب على مكالماتنا العديدة.. هكذا شعرنا بالقلق وقررنا الذهاب إليه.

تغيرت ملامح (خالد) وشرد قليلًا، فقالت (هدى) في الحاح: أكمل من فضلك.

-وجدنا (رضا) يتصل بنا ويخبرنا أن (مروان) ليس في حالة طبيعية وأنه يصرخ ويبكي في الشقة، وصلنا ووجدنا بعض الجيران قد غادروا شققهم وبعضهم حاول تحطيم الباب، إن (رضا) يملك نسخة من مفاتيح الشقة ولكنه لا يحصل عليها إلا عند سفر (مروان).. لذا عندما عاد أخي أخذ منه النسخة، فتحنا الشقة بنسخة المفاتيح لدينا وأبعدت الجيران لأنني خشيت أن يروه في حالة غير طبيعية فيتهمونه بالجنون أو يتحدثون عنه بما لا يليق.

تطلعت إليه (هدى) في اهتمام، أخرج (خالد) زجاجة مياه فجرع منها ثم ناولها زجاجة مياه معدنية مغلقة، وقال: تفضلي من أجل الطريق.

وتنهد وعاد يكمل:كان جالسًا في الصالة، أخبرنا (رضا) أنه سمعه في الأيام السابقة يتحدث عدة مرات كلما مر بالقرب من شقته ولم يكن هناك من يجيبه، أي أنه بدا كمن يحدث نفسه.. طرق الباب مرة فلم يجبه (مروان) بل ظل يتحدث في الصالة وكأنه لا يسمع صوت جرس الباب.

تساءل (عبد الله): وكيف كانت حالته؟

-كان جالسًا على أرض الصالة يحدق أمامه بصمت وآثار الدموع على وجهه، أغلقنا الباب وحاول والدي أن يتحدث معه

دون جدوى، غطيناه بالبطانية لأنه كان متجمدًا من البرد ونقلناه إلى المستشفى لأنه كان.....

صمت (خالد)، فأكملت (هدى): لم يأكل او يشرب شيئًا خلال الثلاثة أيام التي جلس فيها في الصالة يكلم الأوهام.

أومأ (خالد) برأسه.. أستطاعت (هدى) أن ترى كذلك بعين الخيال أن (مروان) تبول وربما تبرز على نفسه وهو جالس بهذا الشكل، أنفصل عن العالم الحقيقي خلال تلك الأيام الثلاثة.

قال (عبد الله): كان هذا وهمًا قويًا جدًا.. ثلاثة أيام.

ردت (هدى) هامسة: كانت تلك محاولته الأخيرة.. لقد فشل ونجح (مروان).

وعادت تتطلع إلى (خالد) الذي كان يحاول الاستماع إليها، وقالت: حمد لله أنه لم يجن أو ينتحر.

هتف (خالد): لقد بدا وكأنه مجنون بالفعل.. الأطباء قالوا إن علينا نقله إلى مصحة للأمراض النفسية والعصبية.. هناك مصحة خاصة راقية يعرف والدي صاحبها، نقلناه، إنه هناك محجوز ويعالج منذ أكثر من شهر.

-ولمَ لم يخبرني أحدٌ وقتها؟

بدا الحرج على وجه (خالد)، وقال :لقد.. آه.. رفض والدي في البداية وقال أن أطباء المصحة سيعالجونه جيدًا، ولكنهم فشلوا، إنه لا يتحدث معهم ويرفض جميع الزيارات ولا يأكل تقريبًا، ثم منذ أسبوع نهض ليصلي، ثم مع نهاية اليوم كان قد صلى الصلوات الخمسة كلها وفي اليوم التالي قبل برؤيتنا، ثم طلب رؤيتك.. ظل والدي يكابر لعدة أيام ثم وافق في النهاية.

-فهمت، أطلب من السائق أن يسرع من فضلك.

***

-من هي (هدى)؟

-.....

***

قال الدكتور (حسن) وهو جالس على مقعده وقد جلست (هدى) أمامه: إنه مصاب باكتئابٍ شديد، إنه يأخذ أدويته بانتظام ولكنه لا يتكلم مطلقًا.. يرفض التعاون مع الأطباء ويرفض زيارات أسرته.. بل إن خطيبته السابقة حاولت رؤيته ولكنه رفض.. ظننا أنه فقد قدرته على الكلام ولكن الأمر ليس كذلك، إنه فقط لا يرغب بالكلام، يرفض الخروج إلى حديقة المصحة، يستلقي على سريره ويحدق في السقف صامتًا.. في البداية كان يبكي وينهنه ثم كف عن هذا.. لقد بدأ يتحسن منذ أسبوع.. إنه يصلي بانتظام وقبل برؤية أسرته وتكلم أخيرًا فطلب منهم رؤيتك، وهو يجلس هذه الأيام في حديقة المصحة تحت شجرة كثيفة.

وتطلع إليها من أسفل النظارة الطبية، وأكمل: أخبرني (محمود) بك أنك كنت طبيبته النفسية.

-هذا صحيح.

-أين تعملين؟

-في مستوصف خيري.

صمت الطبيب لثوانٍ، ثم قال: تفضلي معي إذًا.. سنذهب إلى قاعة الزيارات.

تحركت معه (هدى)، كانت المصحة نظيفة وواسعة وراقية وحديقتها مبهجة للغاية وكانت تلك القاعة واسعة مدهونة

بالأبيض وقد جلس المرضى مع ذويهم على طاولات مختلفة.

كان (مروان) جالسًا في هدوء في ركن القاعة وقد أسند رأسه على الحائط وراح ينظر أمامه بصمت معطيًا ظهره لها.

أومأت (هدى) برأسها، وقالت: شكرًا لك يادكتور، سأكمل أنا من هنا.

توقف الطبيب، ثم أشار بيده إلى أحد الممرضين الواقفين في القاعة، وقال له: انتبه إليهما.

ثم غادر.

أما (هدى) فقد وقفت بجوار الطاولة، وغمغمت: كيف حالك أستاذ (مروان)؟

تطلع إليها (مروان)، كانت ملامحه تحمل الضعف والمرض والهموم ولكنها كانت تحمل السكينة كذلك، ذقنه نامية وعيونه ذابلة وملامحه شاحبة وشفتيه جافة.

تمتم: دكتورة (هدى)، أشكرك لقدومك حتى هنا لرؤيتي.

ثم نهض مكملًا: فلنذهب إلى الحديقة.. لن يمانعوا فحالتي ليست خطيرة أو عنيفة.

-ليكن.

***

الفصل الثامن

(صفحة جديدة)

جلس الاثنان على مقعد رخامي أسفل شجرة ضخمة يصدر منها صوت زقزقة العصافير المرتفع.

قال (مروان): هناك عدة أعشاش في تلك الشجرة، ولكنها كثيفة الأوراق ولهذا لايمكننا رؤية الأعشاش.

ورفع عيناه يتأمل الشجرة ففعلت (هدى) المثل، مضت فترة صمت.. ظلت (هدى) صامتة تنتظر في صبر أن يتكلم عندما يرغب في ذلك.

قال (مروان): كان وهمًا قويًا، كنت فيه مريض بالبارانويا، أتلقى العلاج وأرعى ابنتي (ندى) ذات الخمس سنوات وأزور أسرتي، كل ذلك بينما أنا في الواقع جالسٌ في الصالة يسيل لعابي كمجاذيب الأزقة.

وتطلع إليها بنظرة حزينة أشعرتها بالشفقة الشديدة عليه، وقال: لعبت معها، غيرت لها ثيابها، مشطت لها شعرها، أطعمتها، ذهبت بها إلى الحضانة، حكيت لها قصص قبل النوم، تركتها تنام في حضني كل يومٍ تقريبًا، يقول والدي والأطباء أن هذا حدث في 3 أيام ولكنني فعلت هذا في أكثر من شهر، تعلقت بها جدًا.. جدًا.

ارتجفت شفتاه قليلًا وبدأت الدموع تتجمع في عينيه فنظر أمامه مشيحًا بوجهه عن (هدى).. لم تتغير ملامحها ولم يبدو عليها اي أنفعال وظلت تستمع إليه بصبر وحيادية.

عاد يقول: ولكنه أرتكب خطأً.

-خادم السحر؟

-أجل.

وعاد ينظر إليها مكملًا بابتسامة شاحبة: ملامح الجميع لم تتغير.. أبناء أخي مازالا في عمر 9 و11 عامًا، ألا يفترض إن كان حقًا قد مر خمس سنوات أن يكبر الصغار وتتغير الملامح ولو قليلًا.

نظرت إليه صامتة، قال: أدركت هذا ولكنني لم أدقق في الأمر أو لم أبالي، أقنعت نفسي أن بعض البشر لا تتغير ملامحهم وأن البارانويا هي السبب.

-أعجبك هذا الوهم.

تمتم: أجل.. أجل.

ثم نهض فنهضت بدورها.. صار قليلًا فمشت بجواره صامتة.. راح يتطلع إلى زهور وردية اللون جميلة، وقال: ولكن الواقع القبيح تغلب في النهاية على الوهم الجميل، ابنتي ليست حية وتعيش سعيدة في كنف والدها.. الطفلة ماتت قبل أن تبدأ حياتها، ماتت من البرد والتهمتها الكلاب الضالة بينما الوغد الذي أنجبها ينام مستدفأً تحت الأغطية ويعيش حياته وكأن شيئًا لم يكن.

وأرتفع صوته قليلًا، وهو يقول: لماذا أنا غاضب من (هيفاء)؟ لو أن أحدهم فعل هذا بابنتي أو أختي لعذبته حتى يتمنى الموت.. الحق أنها قد أسدت لي خدمة.. ما كنت لأتغير أو أرغب في تغيير حياتي لولا سحرها هذا.. كنت دائمًا كما قلتِ أنتِ

ووصفتني بعبقرية.. حجج يخترعها عقلي كي يبرر أفعالي الخطأ.. لقد فكرت مطولًا.. لولا هذا السحر ربما ماكنت ندمت

على ما حدث للطفلة.. ربما ما كانت حياتي لتتغير حتى لو تزوجت، ما كان يجب أن أستخف بمشاعر (هيام) رحمها الله وأن أعبث بها بهذا الشكل القاسي.. ما كان يجب ان أجعل من (سارة) أومثيلاتها عاشقات.. إن كنا رخيصات فماذا يجعلني هذا؟هل هذا مبرر لتحليل الحرام وتبرير ما فعلت معهن؟ هنا ساقطات فماذا اكون أنا؟

وعاد يسير إلى المقعد الرخامي وأشار إليها بتهذيب كي تجلس، ثم قال: هل تعلمين لماذا أردت رؤيتك؟

ردت: هل يتعلق الأمر بالقميص؟.ماذا عن قوة السحر؟

-لا أوهام والطعام جيد والكوابيس قليلة وكلها تتعلق بطفلة تلتهمها الكلاب.. أظن أنها نابعة من عقلي لا من السحر.

-تريد رقية؟

-كلا، الأمر هو أنك الوحيدة التي أعتقدت أنني يمكنني أن أتوب وأتغير، وأن هناك أملًا ما في الوقت الذي كنت أنا شخصيًا لا أرى هذا في نفسي.

-تريد مني أن أساعدك؟

-أجل، أخبريني ماذا أفعل كي أكفر عن أخطائي، إعتذاري ل (هيام) أمام قبرها لا جدوى منه، لن يحييها ولن يريحها..

أريد أن أستكمل علاجي النفسي معك، ولكن أريد أن أستشيرك في قراري، أظنه قرارًا مصيريًا هامًا، ربما يفقدني الكثير.. الميراث والسمعة ولكنني لا أبالي.

تطلعت إليه في اهتمامٍ، ثم قالت: هل يتعلق الأمر بالطفلة؟ هل ستعترف بها مثلًا؟

-ومالجدوى؟ لقد ماتت ولن يفيدها هذا في شيء، كلا.

-إذًا، فهو أمر يتعلق ب (هدى)، الحبيبة القديمة.

-أجل.

ابتسم من جديد وإن بدت بعض السعادة في ابتسامته وقال: دعيني أخبرك القصة كاملة، هل تعلمين متى أحببت (هدى)؟

-لم تذكر ذلك.

-عندما كنت طفلًا في الخامسة.

بدا عليها الاستغراب وهي تستمع إليه بانتباه وقالت: إنها الثغرة النفسية لديك.

-معك حق.

وتنفس بعمق، ثم قال: عندما كنت في الخامسة من عمري، جاءت للخدمة لدينا في الفيلا خادمة شابة أرملة من الصعيد.. من أسيوط.. زوجها توفى وأهله رفضوا إعطائها حقها في الميراث أو حق ابنتها.. لم تكن متعلمة لذا أضطرت للخدمة في البيوت لتطعم طفلتها.. يومها رأيت ابنتها (هدى) ذات الأربعة أعوام.. رأيت أروع ابتسامة يمكن للأنسان أن يراها، كنت طفلًا وشعرت بالسعادة لأن هناك طفلة قريبة من عمري ستلعب معي، إن الأطفال يا دكتورة (هدى) لا يعرفون تلك الأشياء

المتعلقة بالطبقات الأجتماعية والفقر والغنى والمستوى.. هم فقط يعرفون اللعب البريء والمرح، كانت صديقتي

ورفيقتي، كنت ألعب معها في حديقة الفيلا، كان خيالنا يتكفل بتحويل الحديقة إلى غابة كثيفة مليئة بالوحوش، حمام

السباحة هو بحر عميق هائج يعيش في أعماقه وحش بعدة رؤوس، شجرة المانجو هي في الواقع حية تتحدث لنا بلغة

لا يسمعها الكبار، كنا نلعب ونمرح طوال اليوم.. لم يمانع أحد، وقتها لم يكن لدي أصدقاء، كنت أكون الصداقات بصعوبة في المدرسة.. كان والدي رجل أعمالٍ في بداياته.. ليس ثريًا جدًا كما هو الآن وليس فقيرًا أو من طبقة متوسطة.. كان يعمل طوال الوقت ووالدتي كانت مشغولة بدعمه من خلال تكوين العلاقات مع زوجات رجال الأعمال المعروفين، كنت أرفض الذهاب معها إلى النادي فتصطحب أخي وتتركني ألعب مع رفيقتي العزيزة.

كانت ملامح (مروان) تتغير وأدركت (هدى) أنه يتذكر أجمل فترات حياته الآن، كانت قد استنتجت أن إختلاف الطبقات الاجتماعية حال بينه وبين الزواج من محبوبته.

أكمل (مروان): كبرنا قليلًا، أصبحنا على أعتاب المراهقة، أدركت معنى الفروق الأجتماعية، أدركت أنه لم يعد بوسعي اللعب معها طوال الوقت كالسابق.. فهمت لماذا يذهب كلًا منا إلى مدرستين مختلفتين؟ مدرسة دولية وأخرى حكومية، ظلت لها مكانة خاصة جدًا في قلبي برغم من عرفت من أصدقاء وصديقات في المدرسة.. ظلت صديقتي العزيزة وهي كذلك، لم نعد نلعب في الحديقة ولكننا كنا نجلس ونتحدث ونتناقش أحيانًا لساعات دون أن نشعر بمرور الوقت.. كنا نتلفت حولنا في حذر خوفًا من نظرات والدتها الغاضبة أو نظرات والدي الممتعضة النارية المهددة، كانت وجوهنا تحمر خجلًا فلم نعد تلقائيين كما كنا ونحن أطفال، ثم ماذا؟ بالطبع دلفنا إلى سن المراهقة ووقعنا في الحب وبقوة.

وعاد يتطلع إلى الشجرة ويغلق عينيه ليسمع صوت الطيور بوضوح أكثر، ثم قال بغتة: هل معك طعام؟

فتحت حقيبتها وأخرجت منها شطيرة جبنة أعدتها لها والدتها.. قطع قطعة من الشطيرة ثم قذفها في الهواء اتجاه الشجرة وعلى الفور ظهرت عشرات العصافير تلتقط قطعًا صغيرة وانتهت القطعة قبل أن تسقط أرضًا.

قالت (هدى) مبهورة: هذا مشهدٌ لا نراه كل يوم.

رد باسمًا: أجل.

أعاد إليها الشطيرة وتنهد وراح ينظر أمامه بشرود لثوانً، ثم قال: كانت أحلامنا حمقاء وطفولية، تعاهدنا على الزواج.. سوف أتخرج من الجامعة وأتزوجك مهما أعترض الجميع.. أخبرتها أننا سنسكن في حجرة فوق أسطح إحدى البنايات.. سوف أعمل وأكافح وسننجح.. في النهاية سيأتي أفراد أسرتنا معتذرين نادمين على أعتراضهم، ثم ننجب ونعيش حياة سعيدة حتى نبلغ من الكبر عتيًا ونزوج ابنائنا ونرى أحفادنا ثم نموت وندفن معًا ونعيش في الجنة إلى الأبد معًا في النهاية.

عادت شفتاه ترجف قليلًا وبدا أنه يقاوم بقوة حتى لا تسقط دموعه، وقال:على كل حال، لم نستطع الصبر، وحانت لحظة الضعف التي قد تحدث بين أي مراهقان يحبان بعضهما بعمق ولا توجد رقابة عليهما، في سن السابعة عشر وعندما كانت (هدى) في سن السادسة عشر.. أصبحت حاملًا مني.

وأختلس النظر إليها فوجد وجهها هاديء..لا لوم ولا غضب ولا احتقار، فقال باسمًا: شكرًا لك يا دكتورة.

.....-

-لم تنظري إلي باحتقارٍ أو غضب، كتبت لها ورقة بأنني زوجها وبمرو الوقت عرف الجميع بالأمر، بالطبع لم تفلح

توسلاتي ولا بكائي ورجائي، مستحيل أن يسمح (محمود) بك لابنه أن يتزوج من ابنة خادمة في مطبخ الفيلا.. اكتشفت وقتها كم أنا ضعيف عديم الحيلة.. لا أستطيع فعل شيء.. لن أتمكن من جذبها من يدها والتطلع إليهم في تحدي وإباء ثم أغادر الفيلا لأكافح معها.. أكتشفت أنني مجرد صبي يخشى من والده ويبكي وهو يتلقى الصفعات منه، لن أستطيع فعل شيء.. مجرد طالب مراهق لا يملك مالًا ولا عملًا ولا شهادة، لا يملك سوى عواطف لا نفع لها.

ظلت (هدى) صامتة تستمع إليه باهتمام. أبتلع (مروان) ريقه، ثم قال: كانت في الشهر الرابع ولا يمكن إجهاضها دون تعريض حياتها للخطر، أذكر أن أمها كنت تبكي وتولول، أذكر أنني حبست في غرفتي وأغلقوا علي الباب، ثم أتخذ والدي قراره، أحضر عاملًا من الشركة وزوجه لها مقابل مبلغٍ من المال وبيت في أسيوط، أخذتها والدتها مع زوجها الذي سينسب الطفل إلى نفسه وغادروا إلى أسيوط، ولم أرها ثانية.

وستدار (مروان) إلى أحد أركان الحديقة حيث سمع من يناديه فنظرت (هدى) إلى حيث كان ينظر، كان والده وأخيه ووالدته قد جاءوا ولا شك أن الطبيب أخبرهم أنه يتحدث معها الآن في الحديقة، جلسوا بعيدًا ينتظرون وناداه أخوه ولهذا نظر (مروان).

عاد (مروان) ينظر أمامه، وأكمل: أنهيت دراستي وعملت مع والدي في الشركة وترقيت حتى أصبحت أرأسها.. عشت في شقة مستقلة بحجة أنني كبرت وأحتاج إلى الخصوصية، ذات يومٍ تذكرتها فقررت أن أسأل عنها إحدى الخادمات القريبات من والدتها، كانت تعمل في فيلا أحد الجيران فذهبت إليها وسألتها، أخبرتني أن (هدى) بخير، صارت أمًا لثلاثة ابناء وتعيش بسعادة في أسيوط وأن والدتها قد توفيت منذ أعوام.

انتهى الحديث، فقالت (هدى): وأنت الآن ترغب في الذهاب إليها والتعرف إلى أبنك او أبنتك منها، أليس كذلك؟

قال: أجل، سأفعل.. غدًا صباحًا سأسافر إلى أسيوط، أريدك أن تتحدثي مع الطبيب كي أتمكن من مغادرة المصحة.

-سأفعل، وماذا عن القميص؟

-سأذهب اليوم إلى مقابر الصدقات في (...)، هناك دفنت أبنتي، وأنا أشعر بأنني سأعثر على القميص هناك.

***

غمغم (محمود) وهو جالس أمام (هدى): أنتِ قلتِ من قبل أن لديه مشكلة نفسية بسببي.

ردت وهي تتأمل (محمود) بنظرتها الذكية: أنا لم أقل أبداً أنك السبب.

قال (محمود) في عصبية: قلتِ إنها مشكلة حدثت في ماضيه، أي عندما كان صغيرًا وكنت أنا المسئول عن تربيته وقتها.

قالت (هدى) في رفق: أنا لم اتهمك يا سيدي بأي شيء.

-كان إتهامًا غير مباشر.

-أظن أنك أنت من يتهم نفسه بالذنب، أنا سأستكمل علاج (مروان) وسيكون بخير بإذن الله ولكن....

-ولكن؟

كانت (ميرفت) مع (مروان) في حجرته تساعده في جمع ثيابه، بينما (خالد) ينهي اجراءات إخراج أخيه من المصحة بينما

قرر (محمود) أن يتحدث مع (هدى) قليلًا.

قالت (هدى): لقد أخبرني (مروان) ببعض الأمور، أنت عالجت المشكلة التي وقع فيها ابنك بطريقة كارثية، أرسلت لأبنك رسالة مفادها أنه ليس مضطرًا لتصحيح أخطائه فأنت ستصلحها عنه، لابأس في أن يتخلى عن مسئوليته وا....

-وماذا؟

-وأبنائه.

-.....

-أما الكارثة أنك علمته أن الحب لا جدوى منه، لماذا تحب؟ أنت لن تتزوج سوى من نختارها نحن لا أنت؟ لن تتزوج ألا فتاة بمواصفات معينة لهذا لا تحب، فقط أجعل قلبك يحب من نقبل، وكأنما الأمر بيد الإنسان.

-.....

الغريب أن (محمود) لم يصرخ ولم يعترض ولم يتهمها.. كان رجلًا ذكيًا وقد أدرك أن مشكلة (هدى) حبيبة ابنه لا الطبيبة هي الجرح الغائر في قلب أبنه، هي السبب في أنه يعيش لوحده، يقيم علاقات متعددة، لم يتزوج حتى اليوم وهو قد بلغ الأربعين.. صحيح أنه يزورهم بانتظام ويتصرف كابن بار وصحيح أنه ناجحٌ في عمله، ولكنه على الصعيد الشخصي فاشل.. على الصعيد النفسي جريح، كان ينكر هذا الإدراك في السابق فلما أخبرته الدكتورة (هدى) من قبل في منزلها عن مشكلة نفسية في ماضي ابنه ثارت ثائرته لأنها ذكرته بما يدركه ويحاول جاهدًا أن ينساه.

قالت (هدى): هذه المرة من أجل أبنك، عالج الأمر بطريقة صحيحة.

ونهضت مكملة: سأكون في بنها، أتفقت مع (مروان) على أن يأتي إلي في المستوصف للعلاج مرتين أسبوعيًا.. سوف يكون بخير فلا تقلق، إنه رجلٌ قوي صالح في أعماقه ولكنه ضل الطريق لفترة طويلة وهو الآن وجد طريق العودة.

***

هبطت (كريمة) إلى حجرة الدفن وهذه المرة صعدت ومعها قميصه وقد تلوث ببعض الدم.

ناولته القميص فألقاه أرضًا وسكب عليه الكيروسين وأشعل فيه النار، لا يدري هل هذا دم بشري أم حيواني يلوث القميص.

أعطى المال للرجل ذو الشارب الضخم والمرأة ثم لم انصرفوا جلس أمام القبر، قبر في مدافن الصدقات.. هذه المرة سمح لدموعه أن تسيل.. لم يعد بارد المشاعر كما ظل لسنواتٍ طويلة، قال: سامحيني يا بنيتي، سامحي أباكِ الظالم عديم الضمير، أعدك أنني سأتغير، سأكفر عن كل أخطائي بكل الطرق الممكنة.

ثم أنطلق بالسيارة إلى أسيوط، برغم تأخر الوقت، كان قد حصل على العنوان من والده.. لم يعترض (محمود) بك الصارم أو يلومه أو يصفعه كما توقع بل على العكس غمغم بالعنوان في شرود.

بعدها بحث (مروان) مطولًا في خزانة الثياب حتى حصل على الصورة القديمة ل(هدى).. الصورة التي ظل يحتفظ بها لفترة ثم نسي كل شيئٍ عنها وإن كان يتذكر (هدى) من وقتٍ لآخر ويتذكر ابتسامتها الجميلة.

والآن ينطلق إلى أسيوط بسيارته في منتصف الليل، لا يدري ما الذي سيقوله ل (هدى) حبيبته عندما يراها، لكنه سيفكر في

شيءٍ ما.

***

وصل إلى العنوان في اليوم التالي بعد العشاء، إنها تعيش في قرية تابعة لمركز (..) في أسيوط، صلى العشاء في المسجد ثم توجه إلى هذا البيت الصغير الذي بدا له قديمًا ومهجورًا.. طرق على الباب الخشبي الصغير عدة مرات حتى كلت يداه دون إجابة.. هناك عدة بيوت في المنطقة.. شعر بالحرج ولكن لا حل آخر سوى أن يطرق أبواب الجيران ويسألهم.. طرق باب أقرب منزل ففتح له رجل يرتدي الجلباب.

قال (مروان): معذرة، أنا قريب للسيدة (هدى عبد الغفار) التي تسكن في هذا المنزل، لقد جئت إليها من القاهرة، هل لديك فكرة أين هي الآن وأسرتها؟ فقد طرقت الباب عدة مرات.

قال الرجل: لقد غادرت منذ سنوات.

-حقًا؟

-أجل، غادرت مع زوجها إلى القاهرة، أظن أنهم سكنوا في حلوان في شارع (...)، ولكنني لا أذكر رقم العقار، معذرة.

شكره (مروان) ثم قرر على سبيل الاحتياط أن يسأل جارًا آخر فاكتشف أنها بالفعل قد عادت إلى القاهرة بعد ثلاث سنوات تقريبًا من إقامتها هنا، تحديدًا بعد وفاة والدتها بشهرين، هكذا ركب سيارته وغادر من جديد إلى القاهرة.

كانت إذًا قريبة جدًا منه دون أن يدري، كان مرهقًا بشدة ومع هذا أستمر في القيادة حتى وصل القاهرة فعاد إلى شقته لينام ثم استيقظ في اليوم التالي فصلى الظهر وتناول الكثير من الطعام لأنه جائع وتوجه إلى حلوان بالمترو هذه المرة.

هاهو يقف في الشارع الضيق في هذا الحي الفقير من حلوان، شارع مزدحم بالأطفال والناس.

توجه إلى بقالة صغيرة يجلس فيها رجلٌ عجوز ومعه شاب، مد يده بالصورة وسأل عنها.. أنا قريبها وكنت خارج مصر في الفترة الماضية.. ضيق الرجل العجوز عينيه وراح يفكر في عمق ثم هز رأسه وقال: (أم يوسف)؟

-هل أنجبت ولدًا وأسمته (يوسف)؟

-أجل، ولكنها أنفصلت عن زوجها وغادرت منذ اربعة أعوام.. أسأل عليها عند جارتها (أم فاطمة)، في هذا المبنى الثالث، في الطابق الثاني.

-شكرًا يا حاج.

وأسرع (مروان) إلى حيث المبنى وطرق باب الشقة في الطابق الثاني، فتحت له فتاة شابة، فقال بتهذيب: معذرة..هل السيدة (أم فاطمة) موجودة؟

-من أنت؟

-أخبريها أن قريب السيدة (هدى عبد الغفار) أو (أم يوسف) جارتها السابقة هنا ويرغب في الحديث معها قليلًا.

هتفت الفتاة: أنت قريب (أم يوسف)؟ لم نرى لها أقرباء من قبل.

-أجل.

أغلقت الفتاة الباب وغابت لفترة، ثم عادت وفتحت الباب ومن خلفها وقفت امرأة بدينة عجوز ترتدي الخمار تأملته باهتمام من رأسه حتى أخمص قدميه، ثم قالت: هل أنت (مروان) بك؟

بوغت (مروان) بمعرفتها له، وقال: أجل.

أشارت إليه ليدخل إلى المنزل الضيق ليجلس في صالة ضيقة مساحتها أقل من مساحة حمامه على أريكة متهالكة وجلست المرأة أمامه وطلبت من ابنتها أن تعد الشاي.

قال (مروان): هل تحدثت (هدى) عني؟

ردت المرأة: أجل، ذكرتك وأخبرتني عنك، لديها صورة لك من إحدى المجلات، ولكنك جأت متأخرًا.

-علمت أنها أنتقلت من هنا.

-أنتقلت عند ربها.

هتف (مروان) غير مصدق: ماذا؟ مستحيل.

ردت المرأة: ألم أقل لك أنك جئت متأخرًا.

وتنهدت في مرارة، ثم قالت: عندما جاءت إلى هنا منذ حوالي 19 عامًا كانت فتاة طيبة ومهذبة وأمًا حنونة، كنت أسأل نفسي لماذا تزوجت هذا الحيوان الذي لم يكن يكف عن إهانتها وضربها طوال الوقت.

اتسعت عينا (مروان) وقال: كان، كان ذلك الوغد يضربها.

-أجل، حتى أنها تعرضت للإجهاض مرتين.

-ألم تنجب ثلاثة أبناء؟

ردت المرأة مستنكرة: ليس لديها سوى ابن واحد هو (يوسف).

-مبلغ علمي أنها كانت تعيش حياة سعيدة ولديها ثلاثة أبناء.

-من أخبرك بهذا كذب عليك.

جاءت الفتاة بالشاي ووضعته على طاولة صغيرة تبدو مكسورة، ثم جلست في ركن الصالة تداعب طفلًا رضيعًا يشبهها.

عادت المرأة تقول: كانت تعيسة وكان زوجها دائمًا يهينها ويضربها.. كان يجلس بلا عمل معظم الوقت ويتعاطى البانجو والحشيش، أما الأسوء فقد كانت طريقة معاملته البشعة ل (يوسف)، كانت طريقته دومًا تبدو لي طريقة زوج أمٍ مجرم عديم الضمير لا أب.

أرتجفت يد (مروان) ووجم، كان الآن يشعر بغضبٍ شديد يجتاحه.

نهض بغتة وقال بصوتٍ يهتز من الغضب والحزن: أخبريني أين عنوان زوجها، سأقوم بتحطيم عظامه، سأقتله بيدي.

قالت المرأة وهي تشير إليه ليجلس: إجلس يا بني، أنه ليس في مصر الآن، إجلس.

-وأين (يوسف)؟

-أجلس وسأخبرك.

جلس (مروان)، فعادت المرأة تكمل: مرضت (هدى) منذ حوالي خمس سنوات بالسرطان فقام بتطليقها وطردها هي وابنها وتنازل عن البيت لصاحبة العقار مقابل مبلغٍ من المال وسافر إلى إحدى دول الخليج ليعمل هناك، لا أعرف شيئًا عنه، أنتقلت هي بعدها إلى منشية ناصر، ابنها (يوسف) كان ذكيًا ومتفوقًا في الدراسة ولكن زوجها لم يسمح له باستكمال تعليمه، بعد أن حصل الصبي على الاعدادية جعله يعمل لينفق على المنزل، المهم أنها انتقلت مع ابنها إلى منشية ناصر وكان ابنها هو من ينفق على علاجها، سمعت أنه عاد للدراسة، لكنها توفيت منذ ثلاثة أعوام.

وتطلعت إليه وإلى تلك الدمعة التي أنحدرت من عينيه، وقالت: ذات مرة سألتها لمَ لا تطلق هذا الحقير ؟ وسوف ينفق على ولده رغمًا عنه فحكت لي الحقيقة، أخبرتني أنك سوف تأتي، كانت واثقة جدًا من أنك سوف تأتي إليها، لهذا لم تستطع أن تنفصل عن زوجها، كان سيفضحها وسيفضح ابنها وسيرفع عليها قضية نفي نسب.

ووجهت المرأة حديثها إلى ابنتها قائلة: (فاطمة)، أحضري عنوان خالتك (أم يوسف) للبك، وأحضري الصورة التي التقطها (يوسف) مع زوجك.

وعادت تتطلع إليه، وقالت: الحقيقة انني لم أتوقع ابداً أنك ستأتي أو تظهر، لا أحد يفعل ذلك، ولكن يبدو أنني ظلمتك.

عادت الفتاة بورقة عليها العنوان وصورة فيها صبي في السابعة عشرة من عمره مع رجلٍ بشارب يبدو انه زوج تلك الفتاة.. تطلع (مروان) إلى صورة ابنه (يوسف)، ورث منه الشعر البني الناعم والعينان العسليتان والغمازات

أخرج (مروان) هاتفه والتقط صورة ابنه، وقال: هل هو موجود في هذا العنوان؟

-بإذن الله، إنه متزوج ويعمل في ورشة إصلاح سيارات في نفس الشارع، عند الأسطى (سامح).

قال (مروان) في دهشة: حقًا؟!! في هذا السن المبكر!! تزوج؟

قالت المرأة: إنه متزوج منذ أربعة أعوام، بمجرد أن بلغ الثامنة عشر كانت والدته مصرة على تزويجه قبل أن تموت، الزواج في تلك المناطق لا يحتاج إلى أثاث أو منزلٍ فاخر، تزوج مع والدته في شقته الصغيرة ذات الإيجار الجديد، تزوج بخاتمٍ فقط.. زوجته فتاة يتيمة الأبوين كانت تعيش في كنف جدتها العجوز، لم اسمع منه شيئًا منذ وفاة والدته لهذا هذه آخر معلومات أملكها عنه، آه كذلك لقد حصل على دبلوم صناعي.

تأمل صورة ابنه، تبدو مألوفة.. ربما لأنه يشبهه، سألها على مكان دفن (هدى)، عليه على الأقل أن يزور قبرها ولو لمرة واحدة فأخبرته أنها دفنت في مقابر عائلة زوجة ابنها، وحددت له الأسم والمكان.

استئذن (مروان) في الإنصراف ورفض عرض المرأة لشرب الشاي أولًا، لا وقت يضيعه، عليه أن يذهب إلى منشية ناصر.

***

سوف يبكي فيما بعد حتى يجف الماء من جسده وتتقرح عيناه.. كان الحزن يعتصر قلبه إعتصارًا، لقد ماتت الإنسانة التي أحبها حقًا، ماتت كسيرة الفؤاد تحلم بأن يأتي إليها حبيبها ووالد ابنها لينقذها.

أحمق وغبي.. كذا قال لنفسه بصوتٍ مرتفع فتطلع إليه الركاب في سيارة الأجرة المتجهه إلى المنشية، صدق كلام تلك اللعينة التي أخبرته أن (هدى) سعيدة ولديها ثلاثة أبناء، لماذا لم يتأكد بنفسه؟ لماذا كان عليه أن ينتظر كل تلك السنوات ويتناسى (هدى) وطفله؟ وحتى إن كان الكلام صحيحًا، حتى إن عاشت (هدى) بسعادة وأنجبت حتى عشرة ابناء، لماذا لم يصر على معرفة ابنه والاعتراف به؟ ألم يعاهد نفسه على هذا وقتها؟ لم يستطع حماية قراره ولا حبه لأنه كان مجرد صبي ضعيف وقتها ولكن ما حجته بعد ذلك؟ بعد أن أنهى دراسته وأصبح قادرًا على الاستقلال جاء متأخرًا كما قالت له الجارة.. ترى هل يعلم (يوسف) أن والده الحقيقي هو أنا؟ هل أخبرته (هدى)؟

كانت منشية ناصر منطقة عشوائية شديدة الفقر، راح (مروان) بثيابه الأنيقة يتأمل الوجوه المحدقة فيه، الناس هنا لا تثق سوى ببعضها، بعض الشباب يعبث علنًا في الشارع بأسلحة بيضاء، هذا مكانٌ مخيف، سوف يحرص على إحضار ابنه وزوجته معه إلى منزله، سيجعل ابنه يعاود استكمال تعليمه حتى يتخرج من الجامعة، ربما يدرس في الخارج، سيفعل كل ما كان ينبغي عليه أن يفعله كأب، ها هو العنوان..

منزل ضيق به سلالم مرعبة بلا سور للإتكاء، طرق جرس الباب ووقف ينتظر، فتح له الباب رجلٌ مخيف الملامح يبدو كزعماء العصابة، فقال (مروان): أبحث عن الأستاذ (يوسف).. إنه يسكن هنا.

رد الرجل بفظاظة: لا أحد هنا بهذا الاسم، نحن السكان الجدد منذ أشهر.

وأغلق الباب بصفاقة في وجه (مروان).

هبط (مروان) الدرج، وجد أن الحل هو أن يسأل عنه في الورشة التي يعمل بها، إنها في نفس الشارع.. ورشة الأسطى (سامح)، وكانت الورشة موجودة.

تنحنح (مروان) ثم دلف إلى الداخل، وقال: معذرة، أبحث عن عامل هنا يدعى (يوسف)؟

حدق فيه العمال بصمت، تساءل الأسطى وهو يدخن الشيشة: من تكون؟

-أنا قريبه.

ظهر شاب عريض المنكبين أمتلأت يده وثيابه بالشحوم، وقال مستأذنًا: بعد إذنك يا اسطى، أنا سأتكلم معه.

أشار إليه الأسطى علامة الموافقة ومسح الشاب يده في قطعة قماش متسخة، وقال: هل أنت (مروان محمود)؟

يبدوا أن مصر كلها تعلم من هو، أومأ برأسه، فقال الشاب وهو يصحبه خارج الورشة: تعالى لنتحدث في مكانٍ هاديء.

تساءل (مروان) وهو يتبعه: أين (يوسف)؟ هل أنتقل من هنا؟

-أجل.

ووقف معه في آخر الشارع وكان هناك درج مكون من ثلاث طبقات متآكل قليلًا، جلس الشاب وأشار إلى (مروان) كي يجلس ففعل.

أخرج الشاب سيجارة وناولها ل (مروان) الذي قال: لا أدخن.

أشعل الشاب السيجارة ونفث الدخان، ثم قال: والدة (يوسف) رحمها الله أخبرته عنك قبل وفاتها، أنا صديقه المقرب، أراني

صورتك من مقالة في مجلة، أنت تشبهه.

-وأين (يوسف)؟ إلى أين انتقل؟

نفث الشاب دخان السيجارة من جديد، ثم قال: لماذا تبحث عنه الآن؟

كاد (مروان) يهتف: ليس هذا من شأنك.

ولكنه عدل عن ذلك، إنه بحاجة لمعرفة اين ابنه الآن، فقال: كي أعوضه عن تقصيري اتجاهه.. أعلم انني حقير وعديم الضمير، صفني بما تشاء، ولكنني الآن أريد تعويض ابني.

قال الشاب:حقًا؟ أم سيتضح فيما بعد أنك بحاجة لمن يتبرع لك بالكلية لهذا تبحث عن ابنك؟ أو أنك اكتشفت أن زوجتك لا تنجب.

-أنا بصحة جيدة ولست متزوجًا، أبحث عن أبني كي أعوضه، كي أكفر عن أخطائي.

نفث الشاب دخان السيجارة من جديد وصمت لوهلة، ثم قال: أنا أحببت (يوسف) كأخ، أنا من أحضر له هذا السكن هنا بعد أن طرده زوج أمه مع أمه إلى الشارع.. كنت أشعر بمعاناته، أنا أيضًا أملك زوج أمٍ قاسي وزوجة أبٍ شريرة، وأب حقير قذر لا يستحق أن يكون أبًا وأمًا ضعيفة قليلة الحيلة.

ثم ألقى بالسيجارة التي انتهت وتطلع إلى (مروان)، وقال: (يوسف) قد مات.

-هل تمزح؟

-.....

***

تأمل صورة ابنه، تبدو مألوفة، ربما لأنه يشبهه

***

تمتم (مروان): كلا.

-البقاء لله.

-كلا، أنت تكذب علي الآن، أنت تظن أنني سوف أؤذيه، أنا لن أفعل، أقسم لك بالله أنني لن أفعل، كليتي سليمة، هل تفهم؟

تراجع الشاب وقد هاله النظرة في عيني (مروان) وغمغم: قسمًا بالله لا أكذب.

هتف (مروان) فجأة في عصبية: بل تكذب، أنت كاذب، إنه مازال حيًا لم يمت، هل تفهم؟ لا يمكنه أن يموت، لا يمكنهم أن يموتوا جميعًا ويتركونني هكذا؟ هل تفهم؟ لا يمكن أن يموت ابني وابنتي و (هدى) و(هيام).. كلهم يموتون، كلهم يرحلون، لايمكن.. هل تفهم؟

ثم أمسك يد الشاب وهتف متوسلًا: أخبرني أين هو؟ يمكنك ان تأتي معي وسترى بنفسك أنني لا أنتوي شيئًا سيئًا؟ هه.

قال الشاب مشفقًا:لقد مات (يوسف) حقًا، تعالى معي لأريك قبره، إنه مدفون في مقبرة عائلة زوجته.

صرخ (مروان) صرخة يائسة وجلس أرضًا وظل صامتًا لفترة.

تطلع إليه الشاب بقلق، ثم غمغم: لقد ذهب لرؤيتك على أية حال في الشركة، كان مترددًا ولكنني شجعته وذهب إليك.

نظر إليه (مروان) وتمتم: لم يحدث هذا، متى جاء؟

-منذ حوالي عام ذهب إلى الشركة.

تطلع إليه (مروان) وعاد يتمتم: لم أقابله.

قال الشاب وهو ينهض: ولكنه قال إنه رأك وأنك رأيته ولكنك بدوت مشغولًا، وكان ينوي العودة ثانية لرؤيتك ولكن القدر لم يمهله، لقد قام بتوقيع استمارة عمل.

.....-

تسعت عينا (مروان).. لهذا بدت له صورة ابنه مألوفة.

***

وتوجه إليه أحد حراس الأمن، وقال باحترام: (مروان) بك، هذا الشاب هناك يقول أنه يريد رؤيتك لأمرٍ هامٍ جدًا.

ألقى (مروان) نظرة سريعة على شاب صغير السن، رث الثياب، يقف في حجرة الحراس ينظر إليه، ثم قال للحارس:

اطرده، أنا لا أعرفه، إن كان قد جاء من أجل البحث عن عمل أعطه استمارة ليملأها أولًا، وتخلص بعدها من الاستمارة.

عاد الحارس إلى الحجرة وراح يتحدث مع الشاب الذي بدا محبطًا ثم تهللت أساريره وتناول الاستمارة في لهفة.

***

ضاع كل شيء، ضاع كل شيء.

دفن (مروان) وجهه بين كفي يديه وصمت.

نهض الشاب وتطلع إليه ثم استدار عائدًا إلى الورشة، ألقى عليه نظرة أخرى فرأى جسده يهتز، هل يبكي أم يرجف؟ لا يدري، ما يعلمه أن ضمير هذا البك الثري قد أستيقظ متأخرًا.

اقتربت الساعة من الثانية عشر مساءً، أغلقت الورشة وغادر العمال وهم يودعون بعضهم، غادر الشاب صديق (يوسف) مع أحد زملائه الذي أشار إليه هامسًا: انظر.

تطلع الشاب إلى حيث الدرج المتهالك، وجد (مروان) مازال جالسًا من وقتها على نفس الوضع يحدق أمامه صامتًا شاردًا

قال زميله: لمَ لا تخبره؟ يبدو أن نواياه ليست سيئة، لقد راقبته، نهض للصلاة في الزاوية ثم عاد يجلس.

تمتم الشاب: معك حق، ياإلهي.. لقد جعلني أشفق عليه حقًا، حسنًا سأخبره.

وألقى التحية على رفيقه، ثم توجه إلى حيث جلس (مروان) فقال: سيدي.

تطلع إليه (مروان) بحزن وبنظرة شاحبة، فعاد الشاب يقول: يمكنك أن تعوض (يوسف) بعد وفاته.

غمغم (مروان): إن كان لديك وقت، هل يمكننا الذهاب إلى المقابر؟

-لست مجنونًا كي أذهب إلى هذا المكان المخيف في هذا الوقت المتأخر، تعالى لتبيت معي وسأخذك غدًا، أنا أسكن فوق أسطح أحد البنايات السكنية خارج منشية ناصر، سأخبرك بأمر سيسعدك كذلك ويخفف من فاجعتك.

تبعه (مروان) مستسلمًا، لم ينطق بكلمة طوال الطريق ولم ينام بل ظل ينظر من سور السطح، فقال الشاب في قلق: أنت لن تنتحر، أليس كذلك؟ لن تقفز من هنا.

رد (مروان): وما الجدوى؟ سأموت بكبيرة وسأدخل جهنم ولن التقي بهم في النهاية.

-لاتفعل، لدي خبر لك سيسعدك كثيرًا ولكنني سأخبرك اياه غدًا بعد أن أفكر إن كنت تستحق أن تعرف أم لا؟

وقبع (مروان) على أرض السطح صامتًا حتى أشرقت الشمس، أتصل به (أشرف) فتجاهله كعادته في الآونة الأخيرة..

هذا الأحمق قد طلق زوجته وأنهارت حياته الأسرية ولا يكف عن الشكوى ل (مروان)، حسنًا.. لقد سأم الأخير من شكواه ثم انه لم يعد راغبًا به كصديق، إن (أشرف) قد دعمه في كل خطإٍ أرتكبه بدلًا من أن ينصحه، ولهذا فهو قد قرر أن يقطع علاقته به.

في الصباح قال له الشاب: لديك حفيد.

تطلع إليه (مروان) صامتًا، ثم نهض وهتف في لهفة: حقًا؟ كان لدي شك أن هذا هو ما تود قوله.

-أجل، دعني أحكي لك كل شيء أثناء الطريق، ولكن فلنتناول الإفطار أولًا.. أعددت الفول والطعمية.

أخبره اثناء ركوب سيارة الأجرة: (يوسف) قدُقتل منذ سبعة أشهر وكذلك زوجته.

غمغم (مروان):ُقتل؟ هل أنت جاد؟ من قتله؟

-قيدت القضية ضد مجهول كالعادة، من يدري؟هناك من طعنه هو وزوجته (أميرة) حتى الموت، ربما ذلك البلطجي (حماصة) الذي كان يرغب في الزواج من (أميرة) ورفضته، ربما هو (حميدة) بلطجي يتشاجر ويتحرش دومًا بالجيران.. ربما المعلم (حسونة) تاجر الحشيش الذي رفض (يوسف) أن يعمل لديه، هؤلاء من هددوه بالقتل سابقًا وقد أخبرني، ربما مجرد مدمن أو لص كان يريد أن يسرقه، عثر الناس على الجثتين أسفل الكوبري، جاءت الشرطة وفي النهاية لم يتوصلوا لشيء.

وتطلع إلى (مروان) مكملًا وهو يضغط على أسنانه: لهذا أراد رؤيتك، ليس فقط لأنك أباه، بل لأنه ظن أنك قد تساعده على حماية نفسه وأسرته، وربما رعاية ابنه إذا أصابه مكروه، هكذا قال لي، كان سعيدًا جدًا لأنه كتب استمارة عمل لديك وظن أنه بهذا الشكل سيكون قريبًا منك ويتمكن من الحديث معك، كان مستعدًا لأي وظيفة لديك حتى لو كان عامل نظافة.

قال (مروان) بحزن: بني؟

-أجل؟

-أنا لست أباك، لذا أرجوك كف عن تعذيبي.

-ولكنك لست مختلفًا عنه كثيرًا.

-ولكنني أبذل جهدي كي أكون مختلفًا عنه، أنت لا تعلم كم تعذبت في الآونة الأخيرة، ولن تشعر بما أشعر به حاليًا، أعلم أنني أبدوا أمامك متماسكًا ولكن صدقني..

أخرج الشاب سيجارة وأشعلها وناول السائق واحدة، نفث الدخان ثم قال بغتة: أسف.

وصلا إلى المقابر، قال الشاب وهو يشير إليه: (يوسف) مدفون هنا، زوجته ووالدته مدفونتان هناك.

-هل يمكنك أن تتركني قليلًا لوحدي؟

-سأدخن بعض السجائر وأعود.

وغادر الشاب تاركًا (مروان)، وبعد نصف ساعة عاد إليه وشعر بالدهشة من ملامح السلام التي بدت عليه.

هناك آثار دموع ولكن فيما عدا هذا بدا بخير، هناك أتربة قد لوثت ثيابه مما يدل على أنه قد استلقى أرضًا أو إنهار، لا يدري بالضبط.

قال (مروان): سأخذ حفيدي،سأقوم برعايته وتربيته، سأمنحه كل الحب والحنان، سأعوضه، سأستغل تلك الفرصة التي منحها أياي الله.

قال الشاب: إنه في الثالثة من عمره تقريبًا، بالفعل ما يحدث هو تدبير من الله، إنه في رعاية جدة (أميرة) رحمها الله.. إنها تسكن في المنشية كذلك، أنه تدبير الله، المرأة عجوز وتحتضر، حاول أن تقنعها بأن تمنحك الصبي، أنها لا تتحرك تقريبًا وكانت تريد أن تعطي الصبي لإحدى الجارات لرعايته.

تحركوا عائدين إلى منشية ناصر، وقال الشاب: كنت أشعر بالحزن الشديد حتى الأمس، قلت في بالي الطفل صار يتيم الأبوين والآن جدته تحتضر وسيعاني الأمرين في دور الرعاية، الحمد لله أنك ظهرت.

في منزل الجدة العجوز، كانت المرأة نائمة على السرير متغضنة الوجه حولها بعض الجيران يقومون بخدمتها، عمرها

تسعون عامًا ويبدو أن حالتها الصحية متدهورة، ظهر الطفل، في الثالثة، له عيون عسلية وغمازات وشعر ناعم، شعر

(مروان) أنه يتطلع إلى (يوسف) بشكلٍ ما، خفق قلبه بشدة، ابتسم في حنو وأخرج قطعة الشيكولاتة الكبيرة التي ابتاعها

في طريقه فتوجه إليه الطفل.. سأله (مروان) وهو يتأمله: ما اسمك؟

رد الطفل في براءة: (ياسين).

أحتضن (مروان) الصغير مطولًا وقبل يده ثم أطلقه وناوله الشيكولاتة، سيصطحب الصبي معه إلى أحد معامل التحاليل الشهيرة، فهو يريد القيام بتحليل ال (دي إن أيه) كي يتأكد فقط.

أستئذن الشاب من الجارات، ثم قال للمرأة العجوز: مرحبًا يا حاجة، كيف هي صحتك اليوم؟ لن تصدقي من جاء معي.

دلف (مروان) إلى حجرة المرأة العجوز وجلس على المقعد المتهالك بجوار الفراش، المرأة واعية وعقلها سليم برغم حالة

قلبها السيئة.

قال (مروان): مرحبًا يا حاجة، أريد أن أحدثك في موضوعٍ هام.

-.....

***

شهر مايو قد جاء، فتحت الدكتورة (هدى) نوافذ المكتب كي تستمتع بنسمات الهواء الباردة، تحب هذا الوقت من العام، ليس الطقس باردًا شديد البرودة ولا حار كأنك تجلس في فرن، لم يأتي شهري يوليو وأغسطس بحرارتهما المحطمة للأعصاب بعد.

تناولت كوب الشاي الأخضر بالنعناع وتأملت (مروان) الجالس أمامها، لقد تحسن كثيرًا، يمكن لمن يراه أن يدرك أنه أصبح ينام ويأكل جيدًا، بل وعاد ليمارس الرياضة بعدم انتظام ربما ولكنه عاد.. هناك بريق سعادة في عينيه، أختفت النظرة الحزينة المذعورة الذابلة، خطر في بال (هدى) أنه وسيم بالفعل عندما يبدو بصحة جيدة.

قالت: الآن يمكنني بكل ثقة أن أعلن أنك قد شفيت تمامًا، لم تعد بحاجة للأستمرار على الأدوية.

رد باسمًا: كلمات الشكر والامتنان لا تستطيع التعبير عما أشعر به أتجاهك.. أنتِ أنقذتي حياتي حرفيًا.

ردت وقد أخجلتها كلماته: قمت بواجبي، وكيف حال حفيدك (ياسين)؟

شاعت ابتسامة عريضة على محياه وهو يرد: بخير، الحمد لله، إنه حياتي وروحي الآن.

ورشف من الشاي الأخضر، ثم أكمل: بالطبع فإن (محمود) بك و(ميرفت) هانم يعانون من صعوبة تقبله كحفيد، ولكنهما لا يجروأن على البوح بهذا بوضوح، أخي لا يمانع وإن كان قد تفاجأ به.. هو لم يعلم وقتها بما يدور، كانت لديه فكرة عن علاقتي ب (هدى) ولكنه لم يعلم بما حدث بيننا وبموضوع ابني.

ردت (هدى) بثقة: سوف يتقبلانه في النهاية.

-أتمنى.

-وكيف حال عينيك؟

-بخير.

وكانت قد بكى كثيرًا من قبل فتعرضت عيونه للقروح، ولكنه أستعاد توازنه وشفيت عيناه الآن.

-وقضية اثبات قرابتك ل (ياسين)؟

قال: أخيكِ مع الأستاذ (ناجي) يتوليان القضية، ألا يخبرك (عبد الله) بما يحدث فيها؟

-أخي لا يناقش قضاياه معي.

-حسنًا، فهمت.. تحليل ال دي إن ايه ستظهر نتائجه قريبًا وسيتم وقتها اثبات أنني الأب البيولوجي ل (يوسف) رحمه الله

وعليه فأنا جد (ياسين) وبعدها سأحصل على الحضانة بشكل رسمي، جدته في حالة صحية سيئة وكل مخاوفي أن تموت قبل أن يتم الحكم، وقتها قد يودعون (ياسين) إلى دار للرعاية حتى صدور الحكم وهو ما لن أسمح به حتى لو أضطررت للهروب به إلى خارج مصر.

ورشف أخر رشفة من الكوب، وغمغم: سأحسن تربيته ورعايته، سيكون رجلًا أفضل مني بكثير في كل شيء.

ثم ابتسم من جديد، وقال: شكرًا لك يا دكتورة (هدى) على كل شيء، شكرًا جزيلاً، سأسافر قريبًا لأداء مناسك العمرة مع (ياسين) فلدي موافقة جدته وسأقوم بعد عودتي بعدة مشاريع صدقة جارية لصالح (هيام) و(هدى) و(يوسف) وزوجته (اميرة) كذلك رحمهم الله جميعًا وغفر لهم، هذا أقل شيءٍ أفعله لهم لأكفر عن أخطائي البشعة اتجاههم.

ونهض وهز رأسه مودعًا ثم غادر.

توجهت (هدى) إلى نافذة المكتب الواسعة وتطلعت إلى فناء المنزل حيث كان (ياسين) يلعب مع شقيقتها ثم لم ظهر (مروان) قفز إلى حضنه فاحتضنه (مروان) في حرارة وقبله في رأسه.

رفع (مروان) عينيه إلى النافذة ولوح لها مودعًا، وكذلك فعل (ياسين)، فلوحت مودعة تلويحة خفيفة وابتسمت مغمغمة:

يالك من مريض لا تُنسى يا أستاذ (مروان).

ثم جذبت هاتفها وأجرت اتصالًا وقالت: السيدة (أم ممدوح) معك الدكتورة (هدى)، قرأت استمارتك سيدتي.. أنتِ لست مسحورة بأي شكلٍ من الأشكال ولا أظن أن حماتك تحاول قتلك، أنتِ مصابة بهشاشة عظام، هي السبب في آلام قدمك وظهرك، علاجك هو الذهاب إلى طبيب عظام بارع وتلقي العلاج وليس.. أنا لا أكذب.. أنا.. كلا.. أنا لا أعرف من هي حماتك ولم أتلقى أموالًا من أحد، جربي الذهاب إلى طبيب عظام يا سيدتي، إلى اللقاء.

أما (مروان) فقد سار بجوار (ياسين) ممسكًا بيده الصغيرة.. أرتفع صوت أذان العصر.

هتف (ياسين): الأذان.

قال (مروان) باسمًا: هيا بنا نصلي العصر في المسجد، بعدها نتناول الغداء وأشتري لك أكبر شيكولاتة موجودة.

هتف (ياسين) في حماس: أجل بابا (مروان).

ثم راح كلاهما يرددان مع الآذان بينما تشابكت كفيهما.

تمت